المركز القومى للترجمة



من شعر
ناظم حكمت

قدمه ونقله إلى العربية

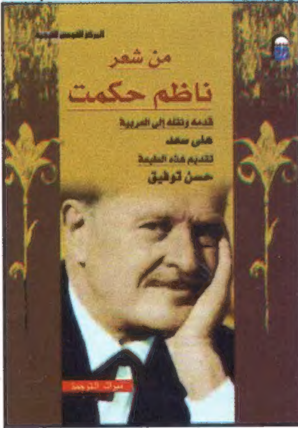
على سعد

تقديم هذه الطبعة

حسن توفيق

ميراث الترجمة

2217



إن أجمل البحار

ذلك الذي لم نذهب إليه بعد.

وأجمل الأطفال

من لم يكبر بعد.

وأجمل أيامنا

لم نعشها بعد.

وأجمل ما أود أن أقوله لك

لم أقله بعد.

من شعر ناظم حكمت

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل
سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2217
- من شعر ناظم حكمت
- على سعد
- حسن توفيق
- 2014

هذه ترجمة
من شعر ناظم حكمت
ناظم حكمت

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

من شعر

ناظم حكمت

ترجمة وتقديم: على سعد

تقديم هذه الطبعة

حسن توفيق



2014

حكمت، ناظم.
من شعر ناظم حكمت/ قدم له ونقله إلى العربية على سعد. ـ القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣.
١٨٤ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٩ ٦٢٨ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الشعر التركى ـ تاريخ ونقد.
أ ـ سعد، على (مقدم ومترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٥١/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 628 - 9

ديوى ٨٩٤،٣٥١٠٠٩

المحتويات

تقديم

ناظم حكمت الذى أحببناه

من الأعمال الأدبية ما يطيب لنا أن نعيد قراءته بدل المرة مرات، بعد أن نكون قد شغفنا واستمتعنا بقراءته أول مرة، وفيما يتعلق بى فإن كتاب «من شعر ناظم حكمت» هو واحد من تلك الأعمال الأدبية التى أعود لقراءتها بين الحين والحين، وإذا كنت أعتز بالنسخة التى اقتنيها من هذا الكتاب فلا بد لى من الاعتراف بأنها لم تكن فى الأصل من مقتنياتى، فقد تكرم أحد أساتذتى وهو الشاعر الراحل الدكتور كمال نشأت بإهدائها لى بعد أن لاحظ أنى كنت قد استعرتها منه عدة مرات، وفى كل مرة كنت أعيدها إليه وأنا حزين على فراقها، والعجيب أن هذه النسخة نفسها لم تكن من مقتنيات كمال نشأت نفسه إلا بعد أن تناقلتها أيادى شعراء وأدباء مرموقين ممن كانوا يكبرون كمال نشأت فى العمر، ومنهم - على سبيل المثال - عبد الرحمن الشرقاوى وعبد الرحمن الخميسى، وبعد أن طافت هذه النسخة من بيت إلى آخر ومن كاتب مرموق إلى سواه فإنها لم تعد تخرج قط من بيتى، بدافع الحرص والخوف عليها وانزعاجى من فكرة أنها قد لا تعود إذا سمحت لأحد باستعارتها، لدرجة أن الكاتب الكبير الراحل رجاء النقاش

كان قد ألح فى طلب استعارتها، فما كان منى إلا أن قمت بتصويرها له بدلا من أن يبتعد الأصل عن عينى!

من شعر ناظم حكمت.. هذا عنوان الكتاب الجميل والرائع الذى قدم له ونقله إلى العربية الدكتور علىّ سعد، وقد صدر هذا الكتاب فى بيروت سنة ١٩٥٢، أما المقدمة التى تتصدره فهى مؤرخة بتاريخ ٢١ آب ـ أغسطس سنة ١٩٥١ وهى مقدمة حاسمة فيما تريد التأكيد عليه وكأنها أشبه ما تكون ببيان عسكرى، يعلن عن قلب نظام من أنظمة الحكم الجائرة والمستبدة، وفيها يقول الدكتور على سعد: يسرنا أن نقدم شعر ناظم حكمت إلى قراء العربية، فإننا نأمل بذلك أن نتيح لهم فرصة التعرف إلى لون من الشعر الواقعى لم يفسح له بعد المجال الكافى فى اللغة العربية. وإننا نعتقد أن الرجوع إلى هذا النهج الشعرى الذى يستمد عناصره ووسائله من واقع العيش وينابيع الحياة الشعبية، من شأنه أن يساعد على بث بعض الصحة والعافية فى عروق أدبنا الذى أفقرته وعقمته المذاهب التى نقلناها دون روية عن الأدب الغربى، من رومانطيقية إلى رمزية وسريالية، مذاهب لم تخلق لمجتمعنا الحاضر ولم تزد الهوة بين الشعب والأدب إلا اتساعا.

ويمضى البيان العسكرى ـ المقدمة ـ فى لهجته الحاسمة، قائلا أو صارخا: نحن نؤمن أن شعوب الشرق العربى فى مرحلتها الحاضرة، مرحلة النضال للتحرر من الاستعمار الخارجى والاستبداد الداخلى ومن الظلم الاجتماعى أحوج الشعوب إلى تعبئة قواها الواعية مع القوى المتوثبة فيها، وإلى تكوين أدب يعبر عن آمالها وكوامن الحياة فيها، ويرسم اتجاهاتها ومصائرها ويبعد عنها كل أعراض القلق والحيرة واليأس والاسترسال مع الأوهام والأحلام، التى جاءتنا من المجتمع الغربى عن طريق المذاهب المثالية الآنفة الذكر.

إذا كنت قد أحببت ناظم حكمت، وحفظت ـ عن ظهر قلب ـ روائع عديدة من شعره بفضل مترجمها الدكتور على سعد، فإنى ظللت لفترة طويلة متشوقا لأن

أعرف من هو هذا المترجم البارع والرائد الذى نقل إلى لغتنا العربية مجموعة مختارة من قصائد ناظم حكمت، ولم يتح لى أن أكتشف لغز شخصية الدكتور علىّ سعد إلا بعد أن تكفل الشاعر الكبير فاروق شوشة بحل هذا اللغز من خلال مقال كان قد كتبه فى جريدة الأهرام ـ عدد يوم الأحد١٩ أغسطس سنة٢٠٠١، وفى هذا المقال يقول فاروق شوشة: كان على سعد يطل علينا ـ نحن القراء ـ بين الحين والحين، بمشاركاته فى باب قرأت العدد الماضى من الآداب معلقا على القصائد المنشورة فى العدد السابق، لم يكن يعلق على شىء آخر غير الشعر كالقصص والأبحاث، وكانت تعقيباته النقدية تدهشنا بقدرته الخلاقة على النفاذ إلى جوهر النص الشعرى وتأمل بنيته التشكيلية واستشفاف روحه وإيحاءاته، وكان يكتب بلغة لا تشبه لغة الأكاديميين أو المحترفين من النقاد الذين يستدرجهم احترافهم إلى التعالم أو ادعاء التعالم واختيار اللغة المنهجية الممتلئة بالمصطلحات والتراكيب النقدية، التى تؤازر هذا التوجه وتكشف عن هذا السمت، على العكس تماما، كان يكتب بلغة رائقة صافية، بسيطة غاية البساطة، لا تقعر فيها ولا حوشية ولا صعوبة، لغة تغرى بالمزيد من القراءة، وتدفع إلى إعادة قراءة النص الشعرى لنرى فيه مايراه هو، وما غفلنا نحن عنه، ونجد فى كتابته إبداعا موازيا، يكاد يطربنا، ويسيطر على حواسنا وأحاسيسنا، ويكاد يحلق بنا وهو يرفعنا معه إلى الأفق الروحى ويدفعنا معه إلى الأسمى، ويطلعنا على سماء الإبداع الحقيقية التى تظلل النص وتمطره بفيض من الدلالات والإشارات ولم أدهش ـ والصديق الشاعر اللبنانى الكبير جوزيف حرب يخبرنى بأن الدكتور على سعد لم يكن دكتورا فى الآداب، لكنه كان يحمل لقب دكتور الذى يسبق أسماء الأطباء، وأن تخصصه بعيد كل البعد عن الدراسة الأدبية أو الفكرية أو الفلسفية، إذن فهو رجل عصامى، علم نفسه بنفسه، وثقف نفسه بنفسه، وكون هذه الذائقة المتميزة وهذه المعرفة العميقة التى اتكأت إليها حساسيته النافذة فى التعامل مع الأعمال الأدبية، وحزنت حزنا شديدا عندما عرفت من الصديق جوزيف أن علىّ سعد توفى أخيرا عن عمر مديد ـ ويؤكد فاروق شوشة أنه قد اقتنى نسخته من ترجمة

الدكتور عليّ سعد لقصائد ناظم حكمت بعد عدة أشهر من صدور الكتاب فى بيروت أى فى نفس سنة ١٩٥٢ بينما لم يتحقق لى أن أقتنى نسختى ، إلا بعد تنازل كمال نشأت لى عنها ، بعد عشر سنوات أى سنة ١٩٦٢وكنت وقتها لا أزال طالبا بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، وعلى أية حال فإنى اكتشفت أنى لم أكن الوحيد الذى يحرص على منع أية محاولة للسطو على نسخته بذريعة الاستعارة التى لايعود بعدها الكتاب لصاحبه فى أغلب الأحيان، وهذا ما أدركته من خلال مقال فاروق شوشة حيث يقول فيه: أتيح لنا ـ فى القاهرة ـ أن نقرأ الكتاب وننفعل به كل الانفعال بعد صدوره بشهور قليلة، وسرعان ما أصبحنا نتداوله كما نتداول الكنز النفيس الذى نحرص عليه ولا نريد أن نفرط فيه، فهو لاينتقل من صديق إلى آخر إلا بصعوبة مماثلة، والأشعار ـ فى ترجمتها العربية ـ تفعل فعلها فينا وكأنها النار المشتعلة، بعد أن صادفت فينا تطلعا مشبوبا إلى آفاق الحرية والكرامة الإنسانية والثورة على القيود والمستبدين والمستعمرين، ولابد لى ـ فى سياق ما يقوله فاروق شوشة عن التطلع المنشود إلى آفاق الحرية ـ أن أتذكر حدثا تاريخيا عظيما قد تحقق فى نفس سنة صدور كتاب من شعر ناظم حكمت، ويتمثل هذا الحدث التاريخى فى ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، وما تبع هذه الثورة المجيدة من انتفاض عارم وحاسم ضد الطغاة والغزاة على حد سواء.

والحق أن كثيرين من أبناء جيلى لم يكونوا يكتفون بمجرد قراءة ناظم حكمت عبر ترجمة الدكتور على سعد، بل كانوا يرددونها فى جلساتهم وأمسياتهم، ومن أجمل وأشهر ما كنا نردده هذه الأبيات المكثفة التى تؤكد على أن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر، فمثل هذا التأكيد من شأنه أن يحث الجميع على العمل الجاد والمثمر ترقبا لإطلالة هذا المستقبل:

إن أجمل البحار

هو ذلك الذى لم نذهب إليه بعد.

وأجمل الأطفال

من لم يكبر بعد.

وأجمل أيامنا

لم نعشها بعد.

وأجمل ما أود أن أقوله لك

لم أقله بعد.

إذا كان أبناء جيلى، ومن قبلهم أبناء الجيل الذى سبقهم قد قرأوا ناظم حكمت من خلال ترجمة الدكتور على سعد، فإن كثيرين من أبناء الجيل التالى قد عرفوا ناظم حكمت من خلال ترجمة الشاعر الراحل محمد البخارى، وقد صدرت تلك الترجمة فى طبعتها الأولى عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١ولقيت تجاوبا كبيرا وقتها، وفى المقدمة التى كتبها محمد البخارى تأكيد على أن ناظم حكمت قد عاش نموذجا نادرا للسياسى الفنان، فقد حارب طوال الأربعين عاما من أجل قضية الحرية والاشتراكية متخذا من شعره سلاحه الأوحد، وقد عد نفسه مواطنا عالميا، وعلى الرغم من مواطن الجمال الكثيرة فى ترجمة محمد البخارى، فإننى ما زلت - ومعى كثيرون من أبناء جيلى - نتجاوب بصورة أعمق مع الترجمة الرائدة - ترجمة الدكتور على سعد والذى لم أعرف أنه كان طبيبا إلا من خلال مقال فاروق شوشة عنه كما سبق أن ذكرت، وعلى أية حال، فإن الترجمة الثانية - ترجمة محمد البخارى قد صدرت فى طبعة جديدة ثانية ضمن سلسلة المشروع القومى للترجمة الذى كان يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة، إلى أن تكفل المركز القومى للترجمة باستكمال هذا المشروع العظيم والخلاق، وفيما يتعلق بتلك الطبعة الجديدة الثانية فإنها صدرت سنة ٢٠٠٢ وقد قام بمراجعتها الدكتور حسين مجيب المصرى، كما تصدرتها كلمة معبرة ومؤثرة كتبها المترجم البارع طلعت الشايب، وفيها يقول: هذا الشاعر الفذ الذى يحتفل به

عالم الأدب والثقافة على مدى عام ٢٠٠٢ بمناسبة مرور مائة عام على مولده، لم يكن يحب أن يتكلم عن نفسه كثيرا، أجبره بعض الأصدقاء ذات يوم على كتابة مقدمة لبعض أعماله، فكتب: إن كاتب هذا الكتاب شاعر تركى عادى يعتز بأنه أعطى قلبه وعقله وقلمه وعمره كله لشعبه ، من جهة أخرى فإن هذا الشاعر دأب بواسطة الشعر على تمجيد جميع نضالات الشعوب مهما كان اسمها وموقعها الجغرافى وقوميتها وعرقها فى سبيل الاستقلال القومى والعدالة الاجتماعية والسلم، وقد اعتبر انتصارات هذه الشعوب انتصارا لشعبه هو، وهزائمها هزائم له.

ومن المهم حقا القول إن ترجمة محمد البخارى لقصائد ناظم حكمت هى ترجمة شعرية على نهج الشعر الحر، وإن كانت تتحلل من القافية تماما فى أحيان كثيرة، فالمقطع التالى من قصيدة الواحدة صباحا ـ على سبيل المثال ـ من تفعيلة بحر المتقارب: فعولن، لكن القافية غائبة تماما، وحسنا فعل المترجم الشاعر هذا الذى فعل وإلا لكان المقطع قد بدا عليه التكلف بما يفقده ما يتحلى به من جمال:

لقد دقت الساعة الواحدة

صباحا، ومصباحنا بعد لم ينطفئ وزوجى إلى جانبى

وفى شهرها الخامس

إذا مس جسمى هنا جسمها

ومرت يداى على بطنها

تقلب طفلى بأحشائها

وليس الجنين خلال الرحم

سوى ورقة فوق غصن

سوى سمك فى مياه بحيرة

صغيرى...

له نسجت أمه

دثارا من الصوف لون الورود

طويلا كقبضة يد

ذراعاه فى صغر الإصبع

يشب بمثل قوامى

وإن كان أنثى

تطل بعينين كالبندق

وتأخذ كل الملامح من أمها...

إذا كان الدكتور على سعد قد ترجم ما ترجمه من شعر ناظم حكمت عن اللغة الفرنسية سنة ١٩٥٢ كما قام محمد البخارى سنة ١٩٧١ بترجمة ما ترجمه من قصائد الشاعر التركى العظيم عن اللغة الفرنسية كذلك، فإن فاضل لقمان قام بترجمة شاملة وموسعة لأعمال ناظم حكمت ابتداء من سنة ١٩٨٢ عن اللغة التركية - لغة الشاعر الأم، وقد صدرت هذه الأعمال المترجمة عن اللغة التركية تباعا عن دار الحوار فى اللاذقية بسوريا.

ومن واجبى تجاه الشاعر العراقى الكبير عبد الوهاب البياتى ووفاء لذكراه أن أشير إلى كتاب قد صدر له بعنوان رسالة إلى ناظم حكمت وقصائد أخرى، وقد صدر هذا الكتاب عن مكتبة المعارف فى بيروت سنة ١٩٥٦؛ أى بعد صدور ترجمة الدكتور على سعد بأربع سنوات، ومن الطريف أنه هو نفسه الذى كتب مقدمة لكتاب عبد الوهاب البياتى، لكن هذا الكتاب ليس مكرسا لترجمة قصائد ناظم حكمت ، وإنما هو ترجمة لقصائد متنوعة لشعراء عديدين، من بينهم ناظم حكمت، ومن هؤلاء الشعراء بابلو نيرودا من شيلى وبول إيلوار من فرنسا وجارثيا

لوركا من إسبانيا، وفيما يتعلق بالقصيدة التى ترجمها البياتى من شعر ناظم فهى بعنوان اليوم الخامس فى إضراب عن الطعام، وفيها:

رفاقى

إذا لم أستطع أن أعبر لكم بوضوح

عما أريد أن أقوله فلتغفروا لى يا رفاقى

لأننى ثمل وأشعر بدوار خفيف

لا من أثر الخمر

ولكن من أثر الجوع...

شهدت مدينة سالونيك فى تركيا ميلاد ناظم حكمت يوم ١٥يناير ١٩٠٢ ورحل عن عالمنا أثناء إقامته فى موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتى وقتها، وذلك يوم ٣يونيو سنة ١٩٦٣ وما بين الميلاد والرحيل أبدع ما أبدع من روائع شعرية وأدبية، وقضى فى المعتقلات ما قضى من أزهى سنوات عمره، وتنقل بين دول وقارات مناضلا من أجل حرية الإنسان فى كل مكان، وقد قدر له أن يزور القاهرة قبل رحيله عن عالمنا ضمن وفد أدباء أفريقيا وآسيا، وكان واحدا ممن التقى معهم الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، ولهذا كانت الساحة الثقافية فى مصر إحدى الساحات التى اهتزت حزنا يوم ورود خبر رحيل هذا الشاعر العظيم، وقد كتب عنه شاعر العامية المصرية الكبير صلاح جاهين قصيدة من أصدق قصائد الرثاء، وهى بعنوان بكائية إلى ناظم حكمت، والقصيدة ضمن ديوان «قصاقيص ورق»، وفيها يقول صلاح جاهين:

مت متأثر بجرحك القديم.. ؟

بعد ما قلنا خلاص

عم ناظم طاب، وقاعد فى الجنينة

يقرا فى الجرنال، ويكتب جوابات
قالوا .. مات
مش خلاص كنا انتهينا؟
مش مسحنا مطرح القضبان بتبسيمة عينينا
مش دواك جبناه من الهند، من الصين واليابان
من بلاد التلج، من باندونج وجزيرة سيلان
من هنا فى القاهرة ؟
مش صحيت، ومشيت، وجيت طليت علينا؟
من سنه، ومش جيت وطليت ع الغيطان
ولقيتها بين إيدين الفلاحين ؟
من سنه، مش جيت وطليت ع المصانع
ولقيتها بين إيدين العاملين ؟
من سنه، مش جيت ودورت علينا
ع الولد إللى ف قصيدتك بورسعيد
قلبه كان تفاحة خضرا، ومات شهيد
مش لقيته من جديد؟
ولقيت شعرك على لسانه نشيد؟
ولقيت شعرك بيتجسد على مر الزمان؟
ليه تموت يا عم ناظم

قبل ما أزمير تغنى لك كمان؟

وبعد...

فإنى أعتز وأفخر بأنى أقدم ترجمة الدكتور على سعد لكتاب من شعر ناظم حكمت، هذا الكتاب الذى أحتضنه مع كل قراءة جديدة له، وها هو ناظم حكمت الشاعر الذى أحببناه ـ ها هو الشاعر التركى الكونى العظيم يطل من جديد بعد ستين سنة على صدور باقة مختارة من شعره فى بيروت لأول مرة، وتبقى التحية لكل عشاق الحرية ولمن يضحون من أجل استعادتها بأغلى ما يملكون.

حسن توفيق

الزيتون ـ القاهرة

مقدمة

نحو أدب واقعى

يسرنا أن نقدم شعر ناظم حكمت إلى قراء العربية. فإننا نأمل بذلك أن نتيح لهم فرصة التعرف إلى لون من الشعر الواقعى لم يفسح له بعد المجال الكافى فى اللغة العربية.

وإننا نعتقد أن الرجوع إلى هذا النهج الشعرى الذى يستمد عناصره ووسائله من واقع العيش وينابيع الحياة الشعبية، من شأنه أن يساعد على بث بعض الصحة والعافية فى عروق أدبنا الذى أفقرته وعقمته المذاهب التى نقلناها دون روية عن الأدب الغربى، من رومانطيقية إلى رمزية وسريالية، مذاهب لم تخلق لمجتمعنا الحاضر ولم تزد الهوة بين الشعب والأدب إلا اتساعا.

ونحن نؤمن أن شعوب الشرق العربى فى مرحلتها الحاضرة ـ مرحلة النضال للتحرر من الاستعمار الخارجى والاستبداد الداخلى ومن الظلم الاجتماعى ـ أحوج الشعوب إلى تعبئة قواها الواعية مع القوى المتوثبة فيها، وإلى تكوين أدب يعبر عن آمالها وكوامن الحياة فيها، ويرسم اتجاهاتها ومصائرها ويبعد عنها كل

أعراض القلق والحيرة واليأس والاسترسال مع الأوهام والأحلام، التى جاءتنا من المجتمع الغربى عن طريق المذاهب المثالية الآنفة الذكر.

ولكننا مع هذا النموذج الرفيع من الشعر الواقعى نحب أن نقدم لقراء العربية ناظم حكمت الإنسان.

فمن هذا الشعر يطل وجه بطل إنسانى ورائد للحرية فى هذا الشرق ومجاهد دفع فى سبيل نصرة حقوق المغلوبين والمحرومين فى بلده وفى كل بلدان الشرق الثمن الفادح فقضى فى السجن ستة عشر عامًا اقتطعت من زهرة أيام شبابه.

ونحن الذين نقف من معارك الحياة موقف المتفرج الآمن لايسعنا إلا أن نخجل من طمأنينة عيشنا، ونحس بصغرنا وتفاهة حياتنا أمام جراح هذا الإنسان الكبير وسخائه فى التضحية وبساطته فى القيام ببطولة العيش فى الأغلال ليفسح للعبيد فك أغلالهم.

ولكن أى منبر لم يكن يومًا أكثر دويًا ولا شفيفًا لنداءات الحرية من السجن الذى شاءت قوى الظلام خنق صوت ناظم حكمت بين جدرانه.

فقد كانت أشعار حكمت وأغانيه تدوى داخل سجن بورصة وتنفذ من بين قضبانه، لتنطلق من شفة إلى شفة فتشيع البهجة والرجاء والإيمان بالحياة فى كل زقاق وكل بيت تركى وتحمل إلى آذان العالم أصداء نضال الشعب التركى فى أبلغ بيان. وأخيرًا أذعنت السلطات التركية لنداءات العالم الحر، واضطرت لإخراجه من السجن الذى كان مقضيًا عليه أن ينهى فيه بقية عمره.

وبانتصار الفكر الحر فى قضيته حل اسم ناظم حكمت فى جو الأسطورة.

ولا عجب فهو سيد من بنى الأساطير وهدم الأساطير.

إنه الشاعر الذى غنى الحرية والفرح وآمال وحكايات القوم البسطاء الذين لم يلتفت إليهم يومًا أحد من رجال السياسة والقلم فى الشرق.

وهو الشاعر الذى لم يستخدم شعره وسيلة للزخرف أو لزيادة راحته ومجده الشخصيين، وإنما أداة نضال شعبى وسلاح ذو حدين يعمر به ويدمر و«يبدع ويتقلب» على خط النار الذى اختار لنفسه العيش عليه فى معركة التحرر الاجتماعى. إنه لم يرض لنفسه درب العيش السهل كغيره من أدباء الشرق ولم يجعل من قلمه حاجزًا بينه وبين الناس ولا سلمًا يرقى به إلى برج مرصود يسكر فيه ويسكر بسحر الألفاظ ورنين القوافى. بل آثر اتباع الطريق الشاقة الوعرة، طريق النضال حتى الاستشهاد البطولى فى سبيل نصرة أفكاره ومُثله وغايات الكثرة الساحقة من أبناء مجتمعه.

فناظم حكمت لايفصل بين عمله الشعرى وعمله السياسى ولا بين جماليته ونضاله. إن شعره مظهر من مظاهر نضاله.

وشعره، لذلك، يحمل هذا الطابع المحبب من الحيوية ومن الصدق والإخلاص والصراحة. إن فيه كل حرارة الصراع وكل عنف العواطف القصوى من حب وكره وحنين وشفقة وعبادة للجمال والحرية.

وإذا أبغض ناظم حكمت فإن بغضه لا يتناول الأشخاص بحد ذاتهم، وإنما معانى الظلم والاستبداد أو الجهل والغدر والخيانة التى يمثلون.

وإذا أحب فإن حبه لا يقف عند شىء، فهو يحب السماء والشمس وأبناء بلاده الذين يصفهم بقوله «إنهم أطفال وشجعان وجبناء وجهلة وحكماء». وهو يحتوى فى حبه الموت والجوع والبائسين وامرأته ورفاقه فى النضال ورفاقه فى السجن، بل هو يحب سجنه وسجانيه.

فناظم حكمت شاعر قبل كل شىء، إن له وجدانًا من الحساسية والنزعة الإنسانية بحيث يعرف كيف يتجاوز حدود النظرة الحزبية الضيقة وكيف يجرد الإنسان من الإطار المصطنع الذى أضفاه عليه التاريخ والمجتمع؛ ليفصلا بينه وبين بقية الناس.

وقد يكون ناظم حكمت استمد من عقيدته طريقتها فى النفاذ إلى صميم الجوهر الإنسانى مما حبب إليه أكثر الناس وجعل قلبه يخفق مع أبعد نجم فى السماء حتى أصبح يتألم لعذاب جندى على أبواب مدريد ويبكى لمصرع إنسان متحرر فى كلكتا، بكاءه لأخبار المجاعة فى استانبول.

وهنا نصل إلى نقطة الثقل فى أدب ناظم حكمت، إلى صفة الشمول الإنسانى التى أدخلته فورًا فى نطاق التراث العالمى.

فشعر حكمت ينبع من أغوار حس إنسانى عميق ومن ذخيرة لا تنضب للمحبة الشاملة التى تتسع لكل إنسان مهما كان جنسه، ومهما كان مركزه فى السلم الاجتماعى.

وعبر الحدود والسدود التى أقامتها المذاهب والأحقاد القومية بين الشعوب وعبر الفواصل الاجتماعية التى نصبتها أجيال من استغلال الإنسان للإنسان، لا يرى ناظم حكمت من ملامح الإنسان إلا ما يقرب ويدنى؛ لذلك كان اهتمامه بالأحياء الشعبية فى إيطاليا والأحباش المضطهدين وزنوج أمريكا يشبه اهتمامه بجياع استانبول وسجناء بورصة.

وبسبب هذا الطابع، يحمل شعره رسالة إخاء وسلام ومحبة بين الشعوب، رغم عنف اللهجة التى يستعملها فى مخاطبة أعداء التحرر الشعبى.

ولكن إلى جانب هذه النزعة إلى الشمول الإنسانى، فإن ناظم لم يكف يومًا عن العودة بإلهامه إلى الينابيع الشعبية المحلية فى أمته.

لقد انحنى ناظم حكمت على الحياة التركية فى القرى والمزارع والدروب والمصانع والسجون، وشاء أن يضبط فى الكلمات روح القوم الذين يعطون لهذه الإطارات وللحياة فيها كل قيمتها.

فروى بؤس الفلاحين والعمال ومشاغلهم وهمومهم وآمالهم وآلامهم حتى أصبح كل تركى يعتبر ناظم شاعره ومرآته ولسانه. وصور لنا الشعب التركى على حقيقته فى مواقفه المتناقضة، وأظهر قدرة هذا الشعب على التحلى أحيانًا بأرفع

صفات البطولة والشغف بالحرية والخير، وأحيانًا بكل ضروب المهانة والخيانة والقسوة.

ولكن أجمل ما فى شعر حكمت، تلك الحكايات وتلك التعابير والصور والأمثال الشعبية التى تزهر كالنجوم على قلمه بين ثنايا حديثه الواقعى، فتشيع فيه من البراءة والنداوة والعفوية بما يتيح لشعره الدخول دون استئذان إلى الأفئدة والألباب.

وقد نجح ناظم ليس فقط فى التعبير عن مطالب الشعب التركى بأشكال وصيغ فى متناول كل الناس، ولكن أيضًا فى توسيع آفاق الشعر التركى وتجديدها، بإعطاء هذا الشعر الطابع الجديد الذى يعكس عالمنا وعصرنا الحديثين.

وهكذا حقق ناظم حكمت ثورة عميقة فى الأدب التركى، فقد حطم الإطارات الشكلية الخانقة التى فرضتها التقاليد العربية والفارسية على الشعر التركى فنقله من مجال الجمال اللفظى إلى تيار الحياة الحقيقية، إلى الأعماق الشعبية، أعنى إلى مصدر كل حق وخير وجمال.

وبتحقيق هذه الخطوة فصل ناظم حكمت عربة الشعر التركى من ركب الآداب الشرقية التى لا تزال تحتضر فى جو البلاغة الآسن؛ حيث تتخبط أرستقراطية فكرية بعيدًا عن أحاسيس الجماهير وروحها، وسير شعر بلاده فى اتجاه الشعر الغربى المعاصر.

وإذا تحدث الناس اليوم عن أعلام الشعر الواقعى لايخلو اسم حكمت من اللمعان إلى جانب أسماء جارسيا لوركا ومياكوفسكى وجاك بريفير.

وعندما نقف أمام شعر حكمت ونستسلم لطغيان التيار الشعبى الحى الجارف كالنار فى كل كلمة وكل صورة منه، لايسعنا إلا أن نذكر الجو المماثل الذى يخلقه حولنا شعر مياكوفسكى وبريفير وريمبو (الحرب السبعين) بنفسهم المألوف الذى

يجعل حديثهم أحيانًا قطعًا من أحاديث الشارع، وبلهجتهم الثورية التى تهز المشاعر، أو شعر فريديريكو جارسيا لوركا الذى يغذيه الإلهام الشعبى «كفتنة خاصة بالثرى الإسبانى».

ويلذ لنا أن نورد هنا بعض ما قاله بهذا المعنى الشاعر الفرنسى تريستان تزارا فى دراسته عن ناظم حكمت:

«وناظم حكمت اهتدى خاصة عن طريق تعميقه الموارد التى كانت تمده بها عادات بلاده وأساليبها والتى تنبئ بعض صيغها فى التعبير بعد إعطائها طابعها الحاضر الحديث، إلى احتواء مضمون هذا الشعر الذى تعصف فيه هذه الحرارة الإنسانية؛ حيث النداءات إلى العدالة وإلى الانتقاض على الاستبداد تحمل طعم الحياة ذاتها.

إن الصورة الشعرية، عند ناظم، على صلتها باللفظ، هى «فعل شعرى» أكثر منها تشبيه أو تقريب مفردات متباعدة. وهذا «الفعل» هو الذى يحدد أكثر الأحيان الطابع الملحمى فى أشعاره. حتى ليمكن القول إن شعره ليس إلا شعر أفعال وإن الظرف الذى يرتكز عليه ليس إلا مظهرًا من تجربة جميع بنى الإنسان فى كل الأصقاع. وإن المعنى والمبنى عند ناظم، بترابطهما المتبادل، غير قابلين للانفصال إما من الوجهة التكتيكية أو من وجهة الصيرورة الإنسانية. وبوسعنا أن نقرر، بهذه المناسبة، أن الشعر يبدأ حيث تكف عن الظهور مشاكل الجوهر والشكل، وأن الحقيقة الجديدة التى تولد، والتى تحمل طابع الأصالة الشعرية نفسها تستطيع عند ذاك أن تدخل فى التراث الثقافى الإنسانى وأن تفعل كالخميرة فى تحول العالم».

لقد دلل ناظم حكمت على أن الحدود بين الحياة والشعر ليست إلا وهمًا وأن بوسع الشعر الحقيقى أن يكون امتدادًا للحياة العادية فى نفس الشاعر وإخصابًا متبادلاً بينهما لا ابتداع حياة مصطنعة من وهم الكلمات.

لقد تنقل هذا الشاعر المتفجر بيسر بين التخوم التى أقامتها أجيال من الانحطاط الحضارى بين الحياة والشعر، بين الفعل والكلمة، بين اللفظة والحركة،

حتى لتحسب الكلمات عنده كائنات حية تضج بالحركة واللون والدفء وحتى لتخفى عليك النقلة، عنده، من حرارة الحياة فى الشارع أو المصنع أو السجن إلى ثنايا السطور.

وإنك لتعجب لهذا الشاعر كيف يستطيع أن ينقل إليك أكثر الأشياء والأحداث والأشخاص قربًا منك والتصاقًا بواقع عيشك وعيش المجتمع دون أن يبتعد بك عن الشعر وعن الرعشة الجمالية.

إن شعر ناظم حكمت الذى يستقى مادته من واقع العيش العادى وأبسط الحوادث اليومية التى تعطى للحياة طابعها البغيض ذى الوتيرة المتصلة يعرف كيف يجنبك الشعور بتفاهة هذا الواقع أو بعبث العيش، فهو إلى جانب موهبته فى اكتشاف المغزى العميق والدلالات الخصبة فى أتفه الحوادث (وهو بذلك يتابع أعرق تقاليد الحكمة عند القدماء) يتقن فن تحبيب الحياة إلى الناس. وبذلك يستطيع كل إنسان أن يتلقى فى شعر حكمت دروسًا فى التفاؤل والرجاء والإيمان بالحياة.

ففى كل بيت من شعر ناظم حكمت نشعر بإمكانية غلبة الحياة على الموت والمرض والألم والظلم. ورغم كل أهوال السجن الذى دفن فيه أجمل أيام عمره، ورغم أن الحياة لم تهادنه ولم ترفق به ولا بإخوانه، بؤساء الأرض، ولم تسخ عليه بمقدار ما حاول أن يسخو به على الناس فإن أية مرارة لم تتطرق يومًا إلى قلبه أو شعره. ففى أعماقه ظلت تضىء شعلة من الإيمان بجمال الحياة وبالولاء لها. وبعد أليس هو الذى يصرخ:

«إن عالمنا كبير وفسيح وجميل

وإنه لرحب شاطئ البحار

لدرجة أن بإمكاننا جميعًا أن نستلقى كل ليلة

جنبًا إلى جنب على الرمال الذهبية

وأن تغنى المياه المشعشعة بالنجوم

كم هى حلوة الحياة، يا تارانتا بابو

وما أجمل كوننا نعيش

فندرك الكون كما لو كنا نقرأ فى كتاب

ونميد به كما بأغنية حب

وندهش كالأطفال

أن نعيش...»

بيروت فى ٣١ آب سنة ١٩٥١

الدكتور على سعد

الأحشاء المقدسة

أنت يا أمًا حمراء العينين
أنت يا من يقتل ويبدع
أنت يا من يرقد فى ظلال الجسور
جنبًا لجنب مع المياه
أنت يا صوت الساحات المشتعلة
أنت يا شعر الشعر ويا موسيقى الموسيقى
أنت يا شقيقى
أنت أيها العاهر الملعون
أنت يا طريد المشانق
أنت يا كل ما يكون
أنت أيها الجوع
إننى أقسم لك وأنا أضع جبينى
على أقدامك العارية
إننى أقسم لك

أننى سأقاتل

لأشبع أحشاءك المقدسة، أحشاءك أنت

لا أحشائى، أنا ولا أحشاءنا، ولا أحشاءه ولا أحشاءهم

١٩٢٩

البنفسجات الصهباء
والأصدقاء الجياع
والطفلة التى عيونها من ذهب

رويدك أيها الشاعر
فنحن أيضًا لنا كلمتان نقولهما عن الحب
نحن أيضًا نعرف شيئًا عن هذا الأمر العجب
فالصيف قد ولى من أمام أنفى
متمتمًا صرخات مجنونة
كقطار أصفر
ذى حافلات خشبية
تتصاعد منه روائح العرق واللحم والتبغ
ومن عجب أننى
كنت أتمنى قدومه
كما أتمنى قدوم التى تحمل إلىَّ الحليب الساخن
فى إناء من النحاس الأحمر

ولكن فليكن
فالصيف لم يأت كما أحببت
الصيف لا يأتى هكذا
لا، ليس هكذا، وحق اسم الكلاب
ايه أنت، يا بنيتى، بل يا أمى ويا زوجتى ويا أختى
ايه أنت يا من تحملين الشمس على جبينك
أيتها الطفلة الحلوة التى عيونها من ذهب
يا طفلتى التى عيونها من ذهب
الصيف ولى من أمام أنفى
مصعدًا صرخات مجنونة
دون أن أتمكن من أن أحمل إليك
باقة من البنفسج الأصهب
لم يكن لى حيلة
فالأصدقاء كانوا جائعين
فأكلنا ثمن البنفسج

١٩٢٩

بروميتوس وغليوننا
والوردة والبلبل ... إلخ

نحن لا نحمل على أعناق قلوبنا
شعرات طوالا تتجعد
مشرقة بالدهن
نحن لم يعد لنا، فى بطوننا
مكان للوردة والبلبل والروح
ولضوء القمر،... إلخ
فالآن
نحن نهزأ بقضايا القلب
وإنك لتستطيع أن تعهد إلينا مطمئنًا
بامرأتك
فنحن نحشو غليوننا بصرخات بروميتوس
كما لو كانت من التبغ الردىء التقطيع

وكتفًا لكتف مع برج الحرائق
نحن نسعى فى الآفاق المحمرة
وراء أعين من نار

١٩٢٩

المدينة التى أضاعت صوتها

(كتبت بمناسبة إضراب الترام فى استانبول)

عدد الأبراج
صفر
لقد سكتت
المدينة
وأحكمت المدينة وضع الأقفال
على شدقها المرصوف بالزفت والأسمنت:
من سنة ١٩٠٠ ....
فى شهر ....
لا يزال الشارع مقفرًا
فاركض فيه من طرف لآخر
الشارع مقفر
مقفر تمامًا
كجيبى...

والماء الذى نضب، لم يعد يسيل...
ولم يعد يسمع دوى... لمحرك
ولا دولاب يدور
الريح
تجرر على الأسفلت اسم المستر فورد
وإعلان ملون منتزع من الجدار
يزوبع فى وسط الطريق
ثلاثة رجال
ثلاثة رجال واقفون
يتأبط أولهم
كمانًا محطمة
ويحمل الثانى بزة وقبعة رسميتين
أما الثالث فعار كالقرد الأشعر
هو الشارع
مر فيه من رصيف إلى آخر
مصفرًا بنغم
وحاكًا رقبتك
مر فلا خطر عليك من الدهس...
ما من محرك يدوى
وما من دولاب يدور
الريح
تقطب أكثر فأكثر حواجبها السود
وزعيق الصفارات يمزق زوايا
الشوارع
ثلاثة رجال

ثلاثة رجال واقفون
ينشدون أغنية معربدة
ويخبطون بأرجلهم...
لا تخبطوا بأرجلكم...
ولا تقفوا بصرخاتكم وسط... الطريق
هذا لا يفيد
فالأسفلت أخرس وسيظل أخرس
هذا لا يفيد
والمدينة التى أضاعت صوتها لن تتكلم أبدًا:
إلا إذا دغدغت
سياط من الجلد
أيديهم المصفدة فى جيوبهم
ثلاثة رجال
ثلاثة رجال واقفون
يتأبط أولهم
كمانًا محطمة
ويحمل الثانى
بزة وقبعة رسميتين
أما الثالث فعار مثل قرد أشعر...
ثلاثة رجال
يتيهون فى الليل مترنحين...

١٩٢٩

وداع

اخلدوا للسكينة يا إخوانى
اخلدوا للسكينة
أنا ذاهب
وفى روحى أنتم
وفى رأسى كفاحى
اخلدوا للسكينة
يا رفاقى أنا.
اخلدوا للسكينة
أنا لا أحب أن أراكم
مصطفين على الشاطئ
كالعصافير على البطاقات البريدية
أنا لا أحب أن أراكم ومناديلكم
تلوح فى أيديكم
لا لا أريد شيئًا من هذا

فإننى أرى نفسى مسجى بكل طولى
فى عيون أصدقائى
ايه يا إخوانى
يا إخوانى فى الجهاد
يا رفاقى فى العمل
وداعًا من غير كلام
فالليالى سوف توصد الباب
والسنون سوف تنسج خيوطها على النافذة
وأنا سأغنى نشيد سجنى
كما أغنى نشيد كفاحى
سنرى بعضنا ثانية يا إخوانى
سنرى بعضنا ثانية
ولسوف نضحك معًا فى الشمس
ولسوف نقاتل جنبًا إلى جنب
يا أصدقائى
يا إخوانى فى الكفاح
ويا رفاقى فى العمل
وداعًا

١٩٣٥

تارانتا بابو

(مقاطع)

إلى ذكرى هنري باربوس

الرسالة الأولى

منذ بضعة أيام، استلمت رسالة ورزمة من صديق إيطالى لم يتمكن من استخدام لغته الأم، فى بلاده، كما يشاء فلجأ إلى اللغات الآسيوية والأفريقية.

إننى لا أريد أن أذكر اسمه، لأن ذلك يعرضه للخطر ولكننى أنقل فيما يلى كتابه بالحرف الواحد:

أخى

إنك لا تعرف روما إلا من خلال البطاقات البريدية والصور المنشورة فى كتب الجغرافيا والتاريخ؛ أبواب كبيرة ذات قناطر ثلاث نقشت على حجارتها خيالات القياصرة والكتائب الرومانية.

والكوليزيوم الذى يلوح كالغربال والذى كادت الجرذان تقضم حافاته، وساحة سانت بيير بحمامها، وقصر البندقية بشرفته التى ينتسب عليها موسولينى بشدقه الفاغر والمحشو بالفراغ، ويده اليمنى على خاصرته ويده اليسرى مرتفعة فى الهواء.

ولكن هناك روما ثانية، روما لا تشبه فى شىء تلك التى تراها على البطاقات البريدية. فهم لا يصورونها ولا يبيعون صورها على البطاقات البريدية.

هذه الروما الثانية تسمى كارتييرى بوبيلارى (أى الأحياء الشعبية) التى تحاكى بيوتها قنوط إيطالى بلا... عمل لم يتمكن من الهجرة إلى أميركا، ومن عتمة هذه الأحياء يتصاعد العرق. فهى لزجة ورائحتها ثقيلة. وهذه الأحياء التى لا تنعم بالضوء - بقليل من الضوء - حتى على صفحات البطاقات البريدية لا تقدر أن تنفذ لا إلى كتب الجغرافيا ولا إلى مجموعات السياح المولعين بالآثار التاريخية الطريفة.

فموسولينى، هذا المفكر الألمعى، الذى زوج ابنته من الكونت شيانو، أغنى فتيان إيطاليا وأقلهم مبالاة، والذى يسكن فى فيلا تورلونيا التى قدمت إليه هدية من قبل أمير تورلونيا، إن موسولينى هذا يقول لنا فى الموسوعة الطليانية معرفًا الفاشستية تحت حرف (ف): «الفاشستية تزدرى الحياة المريحة. وهى لا تعتقد بوجود السعادة على الأرض».

إن هذه العقيدة الفاشستية التى تقوم على احتقار الحياة اللينة على رفض النعيم على الأرض قد طبقت بأمانة وجد عجيبين فى هذه الأحياء الشعبية.

فالدوتشى بنيتو موسولينى، الصديق الحميم للبولونى توبليتز، مدير المصرف التجارى الإيطالى، وفى ذات الوقت، قيصر الأوساط المالية الإيطالية، يقول لنا فى تعريفه للفاشستية عند الحرف (ف): «فى نظر الفاشستية تتضمن فكرة الدولة كل شىء وبدونها لا يوجد شىء فكرى وإنسانى. كل شىء عديم القيمة خارج الدولة».

ولإدراك النظام الذى تتحقق فيه هذه الفكرة الفاشستية العميقة والشاملة، لا ينبغى أن تذهب إلى أونيل برتولينو سبلنديد لرؤية الناس مجتمعين فى صالونات تتألق بأضواء تكاد تكسف شموس إيطاليا ولكن ينبغى أن تنحدر إلى الأحياء الشعبية».

لأن الواقع هو أن أكثر سكان هذه الأحياء قد أدمجوا فى الدولة بعزم كبير. فهم مغيبون إما فى غياهب السجون أو فى مخافر البوليس أو مكاتب جباية الضرائب. وهكذا فهم يعلمونهم واقعيًا ونظريًا، أن لا قيمة لأى شىء خارج الدولة.

والمحرر الإيطالى الكبير الذى شرف دائرة المعارف الإيطالية بتعريفه الفاشستية فى الفقرة (ف) مقدمًا بذلك الدليل على أن الموسوعات الكبرى هى آثار خالية من الهوى حقًا، ومتضمنة معارف إنسانية، يقول لنا أيضًا:

«إن الحياة فى نظر الفاشستية، قائمة على الجد والأخلاق والدين».

وهذا أيضًا حق، وصحيح لدرجة أن آلاف البغايا الجائعات تحيا حياة دينية وإلهية وفقًا للعقيدة الفاشستية، ليس فقط فى أحياء روما الشعبية، بل فى كل الأحياء الشعبية القائمة فى المدن والقرى الإيطالية.

ولكننى أستطيع أن أؤكد لك أن أكثر الذين يقطنون الأحياء الشعبية بعيدون جدًا عن إدراك معانى التعريفات التى تتضمنها دائرة المعارف ويحملون فى ذهنهم عن الفاشستية صورة أعتقدها أقل جدًا وأخلاقية ودينًا عن هذه المعانى.

منذ أسبوعين، ذهبت إذن أقرع باب أحد البيوت البرصاء فى جارباتالا وهو أحد الأحياء الشعبية التى تعطى عن الفاشستية تعريفًا جد عسير وقليل المسحة الشعرية.

وقد كان من البيوت التى تؤجر «غرفًا مفروشة» لطلاب فقراء ولعمال عازبين ولعلماء وفنانين لم يتوصلوا إلى إدراك عظمة الفاشستية.

وطلبت من الخادمة التى تحرس البيت غرفة للإيجار، فصعدت بى إلى الطابق الثانى، ودلتنى على غرفة لا بأس بها. وغرف الأجرة كالثياب التى تؤجر. وعلى كل حال، فإن أول شىء تبادر إلى ذهنى هو أن أعلم: «من الذى لبس الثوب قبلى؟ من الذى سكن الغرفة قبلى؟»

وجلست على حافة السرير، وسألت الخادمة:

«من الذى سكن الغرفة قبلى»؟

فأخذت الخادمة المسكينة رعدة كبيرة، كما لو وخزت بدبوس فى فخذها وحدقت فىَّ بعينين قلقتين، ثم قالت:

«يظهر أنهم لم يخبروك. لقد أوقفوه منذ يومين».

لم أفهم شيئًا من ذلك الجواب الذى لم أكن أنتظره. ولكن بعد فترة تردد، بدأ

اللغز يتضح شيئًا فشيئًا. ذلك أنها كانت تعتقد أنى أحد رجال الأمن. أما الشخص الذى أوقف منذ يومين، فإنه لم يكن إلا فتى حبشيًا، وحسب أقوال الخادمة فإن أصله من جهات «جالا» فى الحبشة. وقد كان وثنيًا. وقد استأجر هذه الغرفة منذ سنة. ويبدو أنه قال لها إنه أتى إلى إيطاليا ليتعلم الرسم. وبعد كل الذى سمعته، بدأت الخادمة تشعر بشىء من الغم لاعتقادها أننى لن أستأجر الغرفة. فأخذت تؤكد لى أنها نظفت الغرفة جيدًا بعد سفر الحبشى وأنها طهرت حديد السرير.

فأفهمتها أننى لم أعدل عن فكرة استئجار الغرفة. وفى المساء، عندما عدت بحقيبتى وكتبى، كانت المرأة تتطلع إلىَّ بنفس النظرة التى تلقى عادة على الكتب. مستغربة كونى لم أرهب أن أقطن غرفة مرت بها دوريات البوليس لاختطاف ساكنها.

وعندما أصبحت وحدى فى الغرفة، كان أول شىء عملته هو أننى بقيت بلا حراك لبضع لحظات. ثم اتجهت نحو السرير لأتداعى عليه... ثم بدأت أفكر.

على هذا السرير الذى أتمدد عليه الآن، رقد حبشى مدة سنة كاملة.. وبغتة توقف نظرى على عقدة فى السقف. لا شك أن نظره أيضًا توقف عندها، مرات ومرات، ويلوح لى أننى أرى، إلى جانب راسى الأصلع، رأسه ذا الشعر الأسود الجعد، وأن آثار راحتيه الورديتين عالقة على حديد السرير.

ووقفت لأجلس، فقد بدأت أدرك أننى لست وحدى تمامًا فى هذه الغرفة.

وهل بوسعى أن أحس بوحدتى فى غرفة ظل يتنفس فيها ويفكر ويحلم ويغنى مدة سنة كاملة إنسان هو الآن صريع بضع طلقات رصاص، أو هو لا محالة على وشك أن يسقط الليلة تحت نيرانها؟

إن توقيفه ونهايته المفجعة سيبقيانه حيًا فى هذه الغرفة، ما دامت هذه الجدران قائمة.

لقد أحسست فجأة بعطف نحوه، لقد شعرت تجاهه باحترام لا يحد، وكأنى بنا كائنان يحبان بعضهما حبًا جمًا، كما لو قاتلا معًا جنبًا إلى جنب سنوات طوالاً، مفكرين ومغنيين فى سبيل قضية واحدة.

لقد كان هناك طاولة فى وسط الغرفة.

وقد جلست على كرسى أمامها ووضعت مرفقى عليها، على نفس هذه الطاولة التى اتكأ عليها مرفقاه.

الحبشة! هذه نصف المستعمرة. وهو، الذى أصله من منطقة جالا، التى هى مستعمرة فى داخل هذه نصف المستعمرة.

وأنا! العبد الأبيض لاستعمار فى قميص أسود.

أنا لم أر وجه أمى. فقد ماتت فى الوقت الذى وضعتنى فيه. وكذلك فإننى لم أر وجه هذا الفتى الحبشى. ولكننى أعلم أن من هذا الباب اقتادوه إلى الموت، وإننى من هذا الباب أيضًا قد دخلت.

وفهمت أنه قريب إلىّ بقدر ما كانت أمى.

وأن شعور المحبة شىء من الغرابة حيث إنك تود أن تلمس وترى الذكرى التى تبقى لك من إنسان ما.

وقد فكرت أن بالإمكان أن يبقى من هذا الإنسان شىء يمكن لمسه أو رؤيته. من هذا الإنسان الذى كان منذ لحظات قريبًا منى والذى كنت ألمح يديه ترتعشان فى الهواء كأوراق غير منظورة.

وإلى جانب السرير، كانت تقوم طاولة صغيرة.

فقمت إليها وبدأت بفتح الجارور السفلى: لا شىء. ثم نظرت إلى الجارور الأعلى، المغطى بالجرائد. حتى فى التحريات والتنقيبات الأكثر دقة وتنظيمًا يبقى دائمًا الشىء المهم جدًا، الشىء الذى يبحث عنه، بمنجاة عن عيون المفتشين.

ورفعت الجرائد، ووجدت شيئًا لا يتوصلون إلى العثور عليه حتى فى التنقيبات والتحريات الأكثر دقة:

وقد كان عبارة عن لفافة من أوراق كتبت عليها، باللغة الحبشية الرسائل التى حررها الفتى الأسود القادم من جالا إلى امرأته والتى لم يستطع إرسالها إليها.

وقد أخذت أقرأ، ومرفقاى على الطاولة، الرسائل التى كتبها الأسود القادم من جالا إلى امرأته، تارانتا بابو. وقد كان بعضها ناقصًا فإن أوراقًا قد انتزعت من بينها، ولا شك أنها ضاعت.

وعندما انتهيت من قراءة آخر رسالة، كان ضوء النهار قد بدأ يبين. وكان ضوء المصباح الكهربائى الذهبى، الذى كان يخفق فوق رأسى، يفقد شيئًا فشيئًا من ألقه، كأن المصباح استنفد دمه. فأطفأته وقد كنت فى حالة إعياء شديد كأننى مشيت ثلاثة أيام دون انقطاع. ومن جديد تهاويت على الفراش، على فراشه هو.

ونمت وفى يدى الرسائل التى كتبها إلى تارانتا بابو، وملقيًا رأسى الأصلع إلى جانب رأسه ذى الشعر الجعد، وأنك تجد طيه الوثائق الأصلية للرسائل المكتوبة إلى تارانتا بابو مع ترجمتها. فإنه من المتعذر طبعها، هنا، أو نشرها. وإنك لا شك ستنشرها هناك، فلا هو ولا تارانتا بابو ولا أنا بإمكاننا أن نرى يومًا هذه الرسائل مطبوعة بشكل كتاب. فهو قد أعدم، أما المكان الذى تعيش فيه، الآن، تارانتا بابو، فلا تستطيع الوصول إليه إلا الطيور التى تشبه الصلبان الدامية، فالبريد لا يبلغ تلك البقعة. أما أنا، فأعيش فى بلاد متصلة بكل الدروب الممكنة مع جهات المعمورة الأربعة. ولكن أية باخرة أو طائرة إيطالية أو أوروبية لن تقدر على أن تعيد إلى إيطاليا الرسائل الموجهة إلى تارانتا بابو.

وهنا ينتهى الكتاب الذى تلقيته من صديقى الإيطالى الذى لجأ إلى اللغات الآسيوية والأفريقية لعدم استطاعته استعمال لغته الأصلية، كما كان يحب؟

وقد وجدت فى الرزمة الرسائل المشار إليها، وإننى أحتفظ بالوثائق الأصلية منها مكتفيًا بنشر ترجمته التى هى من صنعه.

الرسالة الثانية إلى تارانتا بابو

لقد أقبلوا يا تارانتا بابو
لقد أقبلوا ليقتلوك
وليبقروا بطنك
وليروا أمعاءك تتلوى على الرمال
كالأفاعى الجائعة
لقد أتوا ليقتلوك يا تارانتا بابو
أنت
وعنزاتك
لقد أقبلوا، هم هم الذين لا يعرفونك
كما لا تعرفينهم، أنت
ولا عنزاتك التى لم تعتد يومًا على سياجهم
لقد أقبلوا يا تارانتا بابو
بعضهم من نابولى
وبعضهم من النيرول

وآخرون يحملون أيدٍ حارة
ونظرات لم ترتو
لقد حملتهم البواخر
إلى الموت
مجتازة بهم ثلاثة بحار
لقد حملتهم جيوشًا
وسرايا
وكتائب
ولكنهم أقبلوا يا تارانتا بابو
واحدًا واحدًا
كما لو كانوا يقبلون على عرس
لقد أقبلوا فى لهب الحرائق
وحتى لو عادوا إلى بيوتهم
بعد أن يرفعوا أعلامهم
على سقف القش الذى يعلو بيتك الترابى
فإن الحداد النيرولى الذى بترت
ذراعه اليمنى الدامية فى الصومال
لن يستطيع صنع القبضان الفولاذية
كنسيج الحرير
والصياد الصقلى، المصاب بالعمى
لن يستطيع رؤية أضواء البحر
إنهم يأتون يا تارانتا بابو
أولئك الذين أرسلوا ليموتوا ويقتلوا
معلقين صلبانًا من الحديد
على ضمادات جروحهم الدامية

وفى اليوم الذى سيعودون فيه إلى بيوتهم
فى روما ، المدينة الخالدة
مدينة العظمة والعدالة
سوف ترتفع أسعار الأسهم والسندات
وفى أثر الذين سيولون
سيأتى الأسياد الجدد
ليجمعوا الشهد من موتانا

الرسالة الثالثة إلى تارانتا بابو

«إن التى تحمل فى عنقها، على صفوف ثلاث
عقدًا
من أسنان الأوز الأزرق
والتى تعيش تحت السماء كطائر ذى ريش
أحمر
وعلى الأرض كالماء الذى يجرى
فكأن كلماتها ونظراتها مرآة من نحاس
لكلماتى ونظراتى
هى أم ابنتى الثالثة
وابنى الخامس
تارانتا بابو!
طيلة أشهر
لم يبق باب إلا وطرقته
شارعًا شارعًا

وبناية بناية
وخطوة خطوة
فتشت عن روما
فى روما!
هنا لم يعد كبار الأسياد
ينحتون الرخام
كنسيج من الحرير:
فالريح لم تعد تهب من صوب فلورنسا
وقد اختفت أغانى دانتى الليجيرى
وولى وجه بياتريس المتبرجة
ولم يبق أثر من يدى ليوناردو دافنشى
وميكال أنجلو
الذى حكم عليه بالأشغال الشاقة
مكبل بالسلاسل فى المتاحف
ورفائيل شنق من عنقه الشاحب
على جدران إحدى الكاتدرائيات
فاليوم
لم يبق فى شوارع روما الكبيرة الفسيحة
إلا ظل أسود دام
كفأس ذات حدين
متكئ على البنوك، المشيدة بالباطون المسلح
فيقطع عند كل خطوة رأس عبد
ويفتح عند كل خطوة قبرًا
مر يا قيصر
ولا تسألى

يا روما:
إلى أين تذهب روما؟
فذلك واضح كشمسنا
اخرسى يا تارانتا بابو
اخرسى...
غالبى محبتك
وتهيبك
وابقى على ضحكاتك
وصرخاتك
ولكن اخرسى...
اسمعى وانظرى:
فهذا سبارتاكوس، وقد فك أغلاله،
يرود فى ضواحى روما!...

الرسالة السابعة إلى تارانتا بابو

أنا أعلم
أن الأسئلة المزدحمة عندك
على رفوف الرأس
كالقنانى المسدودة
لا تتجاوز أبدًا الثلاثة أو الأربعة عدًا...
أنت التى تحاكين فى جهلك
أستاذًا للقانون الدولى العام...
رغم كل ذلك
لو سألتك:
كيف حالك؟
لأجبتنى:
«إن لونى يشحب
مثل ليل
بدأ يداخله الشيب

وقطرة قطرة
أفقد
قطرة قطرة
لونى...»
ولو سألتك: «لو كانت شعرات
عنزاتنا الطوال
تسقط
ولو كان لبنها
يكف عن الدفق
كشعاعين من نور
ولو كانت ثمار برتقالنا
تجف على أغصانها
كالشموس الصغيرة
ولو مر القحط فوق رؤوسنا
كطاغية ذى أقدام عاتية»
لأجبتنى:
ـ أو تلقى أمثال هذه الأسئلة
على امرأة أفريقية!
فالقحط هو موتنا
وفيض الغلال حياتنا...»
ولكن من الغريب يا تارانتا بابو
أن العكس هو الصحيح هنا:
هنا عالم
مدهش لحد
إن الناس يموتون فى سنة الفيض

ويعيشون فى سنة القحط
إن الناس يهيمون فى الأحياء
كالذئاب الجائعة المنهوكة
والأهراء مغلقة
الأهراء التى تغص بالقمح
وأنوال النسيج
تستطيع أن تنسج من الحرير
ما يكفى لفرش الدروب
من الأرض إلى السماء
والناس حفاة
والناس عراة
هنا عالم
مدهش لدرجة
أن الأسماك تشرب القهوة
والأطفال لا تجد الحليب
وأن الناس يغذون بالكلمات
بينما تغذى الخنازير بالبطاطا

عيش

فكرى يا تارانتا بابو
القلب
والرأس
وذراع الإنسان
المنقبة فى أحشاء الأرض
قد خلقت جميعها هذه الآلهة ذات العيون النارية
وهى تستطيع بضربة واحدة
أن تسحق الأرض
والشجرة التى تعطى الرمان مرة فى السنة
تستطيع أن تعطيه ألف مرة أخرى
إن عالمنا كبير وجميل ورحب
وإن شطآن البحر فسيحة
لدرجة أننا نستطيع كلنا وفى كل ليلة
أن نستلقى جنبًا إلى جنب على الرمال الذهبية

ونغنى المياه المشعشعة بالنجوم
كم هى حلوة الحياة يا تارانتا بابو
وما أجمل كوننا نعيش
فندرك الكون كما لو كنا نقرأ فى كتاب
ونميد به كما بأغنية حب
وندهش كالأطفال
أن نعيش...
أن نعيش فرداُفرداً
وكلنا مجتمعين
اجتماع الخيوط فى نسيج الحرير
أن نعيش كما تغنى الجوقة
أنشودة الفرح
أن نعيش...
ولكن أية حكاية غريبة
يا تارانتا بابو
أية قصة غريبة
أن يصبح هذا الشىء الحلو إلى حد لا يصدق
هذا الشىء المبهج بصورة خارقة
أن يصبح اليوم قاسياً إلى هذا الحد
وضيقًا إلى هذا الحد
ودامياً إلى هذا الحد
وباعثًا على الاشمئزاز إلى هذا الحد

الرجل الذى يمشى

إنه يمشى
مصعر الجبين
وشاله الأحمر فى الهواء
إنه يتقدم خطوة خطوة
إنه يتقدم بتثاقل
إنه يمشى
الريح تزمجر كالبحر
والبحر يصفر كالريح
ومن كل جانب تنهل الأضواء
كالنجوم المتهادية
وتأتيه أصوات
من شطآن القلب الأكثر بعدًا
إلى أين أنت ذاهب يا بنى؟ إلى أين؟
عد إلىَّ يا حبيبى

عد إلىَّ يا أخى
عد يا ذخر بيتى
عد إلى الوراء
إنه يتقدم خطوة خطوة
إنه يتقدم بتثاقل
إنه يمشى
إنه يمشى، هو
مصفرًا أغنية موت وغضب
إنه يمشى، هو
نافخًا صدره كالسفينة
إنه يتقدم خطوة خطوة
إنه يتقدم بتثاقل
إنه يمشى
من يدرى
ربما لن يعود إلى دفن أصابعه من جديد
فى شعر أخته الأشقر
أخته التى تطرز النسيج الملقى فى حضنها
وربما لن يعود مرة أخرى
ليتطلع
وهو راكع أمام قدميها
إلى المفاتن...
كما يتطلع إلى الدرب الخضراء الذاهبة نحو الشمس.
إنه يمشى - هو - إنه يمشى
وبخطوات واسعة ، رحبة ،
يجتاز الدروب

ويحرك ذراعيه كمرساتين ثقيلتين ،
ويتمدد صدره الأشعر كلام جن
إنه لم يعد يسمع
كلمات
أصدقائه المرضى والعجزة
الذين يجالسونه كل ليلة على نفس الخوان الخشبى
هذه الكلمات
التى تتساقط على قلبه
قطرة قطرة
كدم الزهر
إنه يمشى نحو العدو
وعيناه خارجتان من وجهه
كخنجرين عاريين
إنه يتقدم خطوة خطوة
إنه يتقدم بتثاقل
إنه يمشى

المارد ذو العينين الزرقاوين

لقد كان ماردًا ذا عينين زرقاوين
فأحب امرأة صغيرة صغيرة
كانت تحلم ببيت صغير ، صغير
يعرش فى حديقته
السوسن المائج
ولكن المارد كان يحب كمارد
فيداه اللتان خلقتا للأعمال الجبارة
لا تستطيعان أن تبنيا الجدران
ولا أن تشدا حبال الجرس
فى البيت الذى يعرش فى حديقته
السوسن المائج
لقد كان ماردًا ذا عينين زرقاوين
فأحب امرأة صغيرة صغيرة
ولكن ما عتم السأم أن تملك الصغيرة
.

وعلى درب المارد الكبيرة
أضر بها العطش إلى الفرح
وقالت وداعًا للعينين الزرقاوين
وبعد أن أخذت بيد قزم غنى
ولجت البيت
الذى يعرش فى حديقته السوسن المائج
والآن يدرك المارد
إن حب المارد
لا يقدر حتى على أن يدفن
فى البيت ذى السوسن المائج

العالم الأصغر(١)

عندما بدأت هذه النجمة التى ينهل
ضوؤها فى عينى كقطرة من ذهب
عندما شرعت هذه النجمة للمرة الأولى
تخرق دياجير الفراغ
لم يكن على الأرض أى نزل
والكواكب كانت عجائز
والأرض لم تكن إلا طفلة
إنها بعيدة عنا ، الكواكب
ولكن بعيدة وبعيدة جدًا جدًا
وأرضنا لا تشكل بينها
إلا نقطة صغيرة صغيرة
وآسيا ليست إلا خمس أرضنا

---

(١) مقطع من ملحمة شعرية عن حياة بينيردجى ومصرعه. هذا الثائر الهندى بعنوان «لماذا قتل بينيردجى نفسه»؟

وفى آسيا لا تشكل الهند إلا إحدى البلدان
وفى الهند ليست كلكتا إلا مدينة
وبنيردجى ليس إلا إنسانًا فى كلكتا
وهذا ما أريد أن أقوله لكم ، أنا:
فى الهند، فى مدينة كلكتا
سدوا الدرب أمام إنسان
لقد وضعوا فى الأغلال إنسانًا كان يمشى
لهذا السبب
لا أتنازل ، أنا
أن أرفع رأسى إلى الأفلاك الوضيئة
أتقولون لى إن النجوم بعيدة
وإن الأرض صغيرة صغيرة؟
ليكن
فإن ذلك لا يهمنى
واعلموا أننى أجد أعجب من ذلك
وأروع
وأكبر، وأكثر سحرًا
إنسانًا يمنعونه من السير قدمًا
إنسانًا يكبلونه فى الأغلال

١٩٣٤ ٥

مثل كريم(١)

الهواء ثقيل كالرصاص
أنا أصرخ
أنا أصرخ
أنا أصرخ
تعالوا سراعًا
إننى أعدوكم لتصبوا
الرصاص
وقال لى
إنك ستحترق بنار صوتك
وستغدو رمادًا
مثل كريم
الذى احترق بحبه
كل هذا البؤس
وأصدقاء

(١) شخص خرافى احترق وأصبح رمادًا عندما حاول أن يحل قميص حبيبته.

بهذه القلة
وآذان القلوب
صماء
والهواء ثقيل كالرصاص
وأنا أقول له:
«فلأحترق
ولأصبح رمادًا
مثل كريم
فإن لم أحترق، أنا
وإن لم تحترق، أنت
وإن لم نحترق كلنا
كيف يمكن للظلمات
أن تصبح
ضياء؟
الهواء ضخم كالأرض
الهواء ثقيل كالرصاص
وأنا أصرخ
أنا أصرخ
أنا أصرخ
أنا أصرخ
تعالوا سراعًا
أنا أدعوكم
لكى تصبوا
الرصاص

١٩٣٤

عن شعرى

انا لا أملك جوادًا مسرجًا بالفضة
ولا مداخيل تأتى من حيث لا أدرى
أنا لا أملك مالاً ولا عقارًا
وليس معى غير قصعة من عسل
من عسل بلون اللهب
إن عسلى هو كل مالى
وإننى أحمى
من كل أنواع الحشرات
مالى وعقارى
أعنى قصعة العسل
صبرًا يا أخى صبرًا
«عندما يكون العسل فى قصعتك
يأتيك النحل من بغداد»(١)

١٩٣٥

---

(١) مثل شعبى تركى.

بطسبرج ١٩١٧

فى قصر الشتاء، كان كيرنسكى
وفى سمولنى، كان السوفيات وكان لينين
وفى الشارع، كانت العتمات
والثلج
والريح
وهم
وهم كانوا يعلمون أنه قال:
«أمس لم يكن حان الوقت بعد
وغداً سيفوت الأوان
اليوم، القول الفصل»
وهم قالوا: «لقد فهمنا وعلمنا»
وهم أبداً
لم يعلموا شيئًا بمثل هذا العلم الكامل الجارف
وعلى الثلج، كان الليل
وعلى الثلج كانت الريح

وهم»
العائدون من الجبهة، بحرابهم
وبكميوناتهم ورشاشاتهم
وحنينهم وآمالهم ورغباتهم المقدسة
وعيونهم المفتوحة ملء أحداقها، فى الدجنة
إنهم يمشون
إنهم يسيرون نحو قصر الشتاء
ويقول البولشفيك كيتوف من بوتيلوفسكى زافود:
«اليوم، إنه يوم كبير، أيها الرفاق
يوم كبير
وإننى أذكر الذين يريدون النهب
إن قصر الشتاء وكل الروسيا
أصبحت بعد الآن ملك العامل والفلاح»
والريح
والثلج
والعتمات
وهم
يسيرون
ماكرين كالعتمات
شديدين كالريح
يسيرون نحو قصر الشتاء
وسيرجى الأعرج، الآجبستير
يقول: «أية كلبة هى الحياة!
فى سنة ١٩٠٥ ـ وكان عمرى عشر سنوات ـ مررت من هنا
وكان على رأسنا الأيقونات، بعيونها البريئة الواسعة
والأطفال الحفاة، والعجائز

والكاهن جابونى بشعره الطويل
وكانت الريح فى جانبنا
وتجاهنا، كان قيصر كل بلدان الروسيا
يتطلع إلينا، من النافذة الحمراء،
شاحب الوجه، بثياب سوداء
وركعت النساء على الأرض، باكيات
وبينما أهم برفع يدى بإشارة الصليب
أطل القوزاق[1] فجأة، على خيولهم الراكضة
القوزاق، أولئك الخيول الملجمة
والقلايق السوداء
فسقطنا نحن الأطفال، سرعى،
كعصافير الدورى
و«سحقت ضربة حافر وركى».
وسيرجى الأعرج كان يمشى معهم
مجررًا ساقه نحو قصر الشتاء
والريح
والثلج
والعمات كانت أسياد المشهد
أما الفلاح ايفان بتروفيتش
فهو قادم من جهة بولونيا، وعيناه
كعينى هر، تقشعان فى الظلام
فبصق فى لحيته الحمراء
وقال: «آه يا أمى
لنا الأرض، كالبط ذى الرأس الأخضر!»
الريح
والثلج

والعتمات تملأ كل المشهد
وعلى الساحة كان قصر الشتاء وهم
وفى المرفأ، كان الطراد آفورا ذو المداخن الثلاثاء
وأطلق قصر الشتاء النار
وأطلقوا، هم، نيرانهم
ووراء الأعمدة كان يرتجف اليونكرز
والبغايا الشقر
وقال سيرجى الأعرج، الآجوستير:
«آه أية كلبة هى الحياة!
بأية أيدى بقى كيرنسكى...»
وعلى ركبته المعطلة هوى إلى الأرض
إنه عائد من جبهة بولونيا
الفلاح ايفان بيتروفيتش
فتبين فى الأبعاد
بعينيه اللتين تشبهان عينى هر
الأرض الخصبة الخضراء
فأخذ يعمل رشاشه، بنشوة
وهو يبصق فى لحيته الحمراء
تحت الريح
وتحت الثلج الأبيض
كان القرميد الأحمر فوق قصر الشتاء
وعندما بدأ الجليد يحمر على نهر النيفا
دخلوا إلى قصر الشتاء
بشهية الطفل
وشجاعة الريح
الحديد، والفحم، والسكر

والنحاس الأحمر
والأنسجة
والحب والعنف والحياة
وروسيا الكبرى والصغرى والبيضاء
والقوقاز وسيبيريا والتركستان
ومجرى الفولجا الكئيب
والمدن، كلها
تغير سير أقدارها
فى لحظة من الفجر
فى لحظة من الفجر اندفعوا فيها
من شطآن الليل
وجاسوا فيها بأحذيتهم العالية
السلالم المرمرية

الشيخ بدر الدين

فى مقدمة هذه الملحمة التى ظهرت عام ١٩٣٦، يروى ناظم حكمت كيف قرأ فى سجنه نسخة موجزة مشوهة عن سيرة بدر الدين، متصوف تركى ثائر استشهد فى القرن الرابع عشر مع تابعه المناضل مصطفى، الذى صلب على ظهر جمل بعد أن خسر معركة ضد الأمير مراد.

وإليكم النص الذى يتكلم فيه المؤرخ الجنوى الوقاب عن مصطفى:

«وظهر فى ذلك الزمان، فلاح تركى بسيط فى المنطقة التى يسميها العامة قارا بوروم أو ستيلاريوم والواقعة وسط خليج يونيون، تجاه جزيرة ساموس. وأخذ هذا الفلاح يبشر بين الأتراك ويدعوهم إلى جعل كل ما يملكون من غذاء وملابس وأراضى مشتركًا بينهم باستثناء النساء».

وتبدأ الملحمة الشعرية بصورة جميلة:

يتخذ قميص للسجين معلق على نافذته فى العتمة شكل مصطفى ليقود الشاعر فى عودته على التاريخ وليريه كل الذى جرى.

إقطاع شاهانى

(مقطع)

كان الجو حارًا
كان الجو حارًا
كان الجو حاراً كالمدية
كمدية ذات مقبض دام وذات نصل حار
كان الجو حارًا
والغيوم كانت ملبدة
وكانت الغيوم على وشك أن تتناثر
فى كل برهة
وهو يتطلع
ساكنًا على الصخور
وانحدرت عيناه كنسرين نحو السهل
هناك أرق النساء وأقساها
وأبخلها وأسخاها
وأكثرها حبًا ومجدًا وجمالاً:

الأرض
كانت على وشك أن تضع فى كل برهة
كان الجو حارًا
وهو، على جبال قاربوروم
يتطلع إلى الأفق، حيث كانت تنتهى الأرض
وعقد حاجبيه
فإن حريقًا ذا خمسة رؤوس كان يتفجر فى الأفق
منتزعًا رؤوس الأطفال كشقائق من الدم
ومجررًا وراءه صرخات عارية
ذلك كان
الأمير مراد الذى كان مقبلاً
فالأمر الشاهانى كان يقضى بأن ينزل
الأمير مراد إلى سهول عابدين
وأن يهاجم مصطفى، قائد أتباع بدر الدين
كان الجو حارًا
وتطلع مصطفى، قائد قوات بدر الدين
لقد تطلع دون وجل، الفلاح مصطفى
دون ضحك ودون غضب
لقد تطلع أمامه
فإن أرق النساء وأقساها
وأبخلها وأسخاها
وأكثرها حبًا وعظمة وجمالاً:
الأرض
كانت على وشك الوضع فى كل برهة
لقد تطلع
وتطلع الشجعان من أتباعه من فوق الصخور

وعلى الأجنحة الشاهانية التى كان يصفق بها طير الموت
كان الأفق يقترب من أرضهم
ذلك أن أولئك الرجال الذين كانوا يتطلعون من فوق الصخور
أولئك الرجال قد شقوا تلك الأرض
بكرمتها وتينها ورمانها
وغنمها الذى كان صوفها أكثر اصفرارًا
ولبنها الذى كان أسمك من العسل
أولئك الرجال قد شقوا تلك الأرض
وبنوها دون حدود ولا جدران
كطاولة الإخوان
كان الجو حارًا
وتطلع شجعان بدر الدين إلى الأفق
فإن أرق النساء وأقساها
وأبخلها وأسخاها
وأكثرها حبًا وعظمة وجمالاً:
الأرض
كانت على وشك الوضع فى كل برهة
كان الجو حارًا
والغيم ملبدًا
وكانت أول قطرة تهم بأن تسقط على الأرض
كالكلمة الحلوة
وفجأة
بادر شجعان بدر الدين العدو
حاسرى الرأس
بقمصان بيضاء مفتوحة
وسيوف وأقدام عارية

متهاوين عن الصخور
متساقطين كالمطر من السماء
ونابعين من التراب
كأنهم آخر ثمار تلك الأرض
وحمى وطيس المعركة
ودخل فلاحو عايدين الأتراك
وصيادو صاموس اليونانيون
وصغار التجار اليهود
وعشرة آلاف من رفاق مصطفى
كعشرة آلاف فاس فى غابة العدو
فأبيدت الصفوف ذات الرايات الحمراء والخضراء
والدرق المزركشة والخوذ النحاسية
ولكن عندما أقبل المساء مع المطر
لم يبق من العشرة آلاف إلا ألفان
فالعشرة آلاف أعطوا الثمانية آلاف منهم
ليستطيعوا:
«الغناء معًا
وسحب شباكهم معًا من المياه
وصنع الحديد كالدنتلا
وحرث الأرض مجتمعين
وأكل التين المخزون فيه العسل معًا
وليكونوا مجتمعين فى كل شىء وفى كل مكان
إلا فوق خد
الحبيبة»
لقد هزموا
ومسح الظافرون دم سيوفهم

على القمصان البيضاء التى لا خياطة فيها
ودبست الأرض التى غناها معًا المهزومون
الأرض التى حرثوها بأيدى الإخوة
لقد دبست بسنابك
الخيل التى ولدت فى أدرنة

مصرع الشيخ بدر الدين

(مقطع)

الرذاذ يتناثر
بوجل
وبصوت منخفض
كهمس الخيانة
الرذاذ يتناثر
كما تركض أقدام الخونة الحافية والبيضاء
على الأرض البليلة السوداء
الرذاذ يتناثر
وفى سوق سيريز
أمام دكان حداد
كان شيخى بدر الدين مشنوقًا
وكان لحم شيخى عارياً تمامًا
وكان اللحم ينز ويتأرجح
تحت الغصن الذى فقد أوراقه

الرذاذ يتناثر
وسوق سيريز أبكم
وسوق سيريز أعمى
وفى الهواء تقوم الكآبة الرهيبة
دون صوت ودون عيون
إن سوق سيريز يخبئ
وجهه بيديه
الرذاذ يتناثر

١٩٣٦

ملحمة حرب الاستقلال

(مقاطع)

إن هذه الملحمة الشعرية الطويلة تصف الحرب بين اليونان وتركيا والتى تسمى حرب الاستقلال (١٩١٨-١٩٢١) كانتفاضة الجماهير التى كان يقودها مصطفى كمال ليحمى الأرض التركية ضد المستعمر المحتل. كتبت فى السجن فى حدود ١٩٤٠. وهى لم تنشر ولكن الأيدى تناقلتها فى تركيا من يد ليد ومن فم لفم.

هم الذين يبدون كالأطفال
كالنمل فى الأرض
أو كالأسماك فى الماء
هم الذين هم
جبناء
وشجعان
وجهلة
وحكماء
هم الذين هم أطفال

هم الذين يبدعون ويهدمون
هم ، وحدهم، يملأون كتابنا بمغامراتهم
هم الذين يلقون برايتهم
عندما يغريهم الخائن
ويركضون للاختباء فى بيوتهم
تاركين العدو فى السهول
هم الذين رغم كل ذلك يطعنون الخائن
هم الذين يضحكون كما تضحك الشجرة الخضراء
هم الذين يبكون دون كلفة
ويقسمون
ويقسمون بكل الأسماء
هم، وحدهم، يملأون كتابنا بمغامراتهم
هم الذين ذات صباح
يهبون من على حواشى الليل
معتمدين بأيديهم الثقيلة على الأرض
ليغيروا مصير الكون...
هم الذين يعكسون فى أكثر المرايا صفاء
الصور الأكثر تلويناً
هم الذين هم الغالبون والمغلوبون فى عصرنا
هم الذين تحدثوا عنهم كثيراً
هم الذين قيل عنهم
أن ليس لديهم ما يخسرونه
غير أغلالهم...
لقد رأينا النار والخيانة
وقاومنا
ولا نزال نقاوم...

٢ تشرين ثانى، قونية
عند الفجر
دخل المدينة ديليباش ورايته الخضراء
وخمسمائة فار
فبسطوا سلطانهم ثلاثة أيام وثلاث ليال
على هضبة علاء الدين
وعندما هربوا فى اتجاه منافقجات
حيث لاقوا حتفهم
كانوا يحملون رؤوسًا فى جعابهم
٢٩ تشرين ثانى كوتاهية
خيانة أخرى
١٨٠٠ فارس وأربعة مدافع
ذاك كان الشركسى ايتيم
فالتحق بالعدو
فى الليل
يسوق أمامه بغالاً محملة سجادًا
وقطعانًا من البقر والأغنام
لقد كانت نفوسهم سوداء
وخناجرهم وسياطهم
مرصعة بالفضة
وخيولهم وأجسادهم مكتنزة
لقد رأينا النار والخيانة
والروح تميد بالزوبعة
وجلدنا يقاوم
دون حب ولا هوى ولا ثياب
لم تكن جبابرة

ولكن بشرًا
ضعفاء وأقوياء إلى حد لا يصدق،
يملكون أسلحة وخيولاً.
وكانت الخيول تقاوم
رغم بشاعتها وقلة غذائها.
ومع أنها لم تكن تعلو عوسجة ناحلة
فإنها كانت تعرف كيف تعدو فى السهل
دون صهيل ولا زبد
طيعة دون لجم.
وكان الرجال يسيرون حفاة
وعلى رؤوسهم القلايق
وفى نفوسهم الكآبة
وفى نفوسهم الأمل الرهيب
وكان رجال مجندلين، دون أمل
ودون كآبة،
كان رجال منسيين فى غرف القرى
ملء لحمهم الرصاص،
رجال مكدسون كأكوام الضمادات
والأحذية والجلود
لقد كانوا ممددين على ظهورهم جنبًا إلى جنب
وفى أيديهم التراب والدم
وكان الفارون من الجندية يجوسون
خلال القرى فى الليل المظلم،
بخوفهم ومسدساتهم،
جائعين
يائسين

ودون رحمة
وكانوا يهبطون نحو بياض الدروب المقفرة
ويسلبون الفارس القادم
بالصدى والنجوم
فى جبال بولو
وكانوا يقذفون إلى الهاوية
العربات المحملة بالقطن
وورق السجائر والملح والصابون
عندما لا يجدون فيها خبزًا

يوم الأحد

إنه الأحد، اليوم
ولأول مرة أخرجونى إلى الشمس
اليوم
وأنا
لأول مرة فى حياتى
تطلعت إلى السماء دون أن أضطرب
مستغربًا أن تكون بعيدة عنى إلى هذا الحد
وأن تكون زرقاء إلى هذا الحد
وأن تكون فسيحة إلى هذا الحد
وجلست على الأرض
وكلى تهيب
وألصقت ظهرى بالجدار الأبيض
فليس الآن موضوع تفكير
أن ألقى بنفسى فى الخضم
ليس من نضال فى هذه البرهة

ولا من مشاغل حرية أو نساء
أرض وشمس وأنا
أنا إنسان سعيد

١٩٢٨

الثلج يسقط فى الليل

لا سماع صوت من العالم الآخر
ولا صوغ الدنيا العجب
دفى نسيج السطور
ولا تلمس القافية تلمس الجوهرى
لا أقوال حلوة، ولا ريشة مسحورة...
هذا المساء، ولله الحمد
أنا أرفع
أنا أرفع بكثير من كل هذا
هذا المساء
أنا مغن من الدروب
إن صوتى عار، لا صنعة فيه
هو صوت يغنى لك
أغنية لن تسمعها
الثلج يسقط فى الليل

وأنت على أبواب مدريد
وإن أمامك جيشًا بكامله من المدن
جيشًا يقتل أجمل ما نملك
الأمل والحنين، والحرية والأولاد
الثلج يسقط فى الليل
وربما تكون تشعر بالصقيع
فى قدميك المبللتين فى هذا المساء
الثلج يسقط
وبينما أفكر فيك
فى هذه اللحظة نفسها
قد تمزقك رصاصة حيث أنت
عند ذاك أن يكون ثلج، ولن تكون ريح
الثلج يسقط
وأنت الذى تقول على أبواب مدريد «لا أحد يمر»
كنت ولا شك موجودًا قبل ذلك
من كنت، ومن أين أنت قادم، وماذا كنت تعمل؟
ربما تكون قادمًا من مناجم لستوريا
وربما تغطى ضمادة دامية على جبينك
جرحًا أصابك فى الشمال
وربما تكون آخر رصاصة
انطلقت من بندقيتك
عندما أحرق اليونكرز مدينة بيلباو
وربما تكون عاملاً زراعيًا
فى مزرعة الكونت فيرناندو
فاليسيرو دى كارتوبان

وربما كانت عندك دكانة فى لابويرتا ديل سول
فكنت تبيع الثمار ذات الألوان الأسبانية الزاهية
وربما لم تكن لك أية مهنة
وربما كان لك صوت حلو
وربما كنت طالبًا فى الفلسفة أو فى الحقوق
فبقيت كتبك تحت عجلات الدبابات الإيطالية
وربما تكون لا تؤمن بالسماء
وربما تحمل على صدرك
صليبًا معلقًا بخيط
من أنت؟ وما اسمك؟ وما عمرك؟
أنا لم أرك ولن أرى وجهكَ فى عمرى
من يدرى. قد يكون يشبه وجوه الذين
هزموا قولتشاق فى سيبريا
أو ربما يشبه وجه ذلك الذى يرقد
على ساحة معركة دوملوبينار
من الجائز أيضًا أن تكون صورة لروبسبيير
إنك لم تسمع باسمى ولن تسمعه، زمانك
فإنه يفصل بيننا بحار وجبال وعجزى الملعون
ولجنة عدم التدخل
إنه لا يسعنى أن آتى إلى جانبك
ولا أن أرسل إليك صندوقًا من الخرطوش
ولا بيضًا طازجًا
ولا زوجًا من كلسات الصوف
ولكننى أعلم أن قدميك المغروستين على أبواب مدريد
باردتان كطفلين عاريين.

وأنا أعلم أيضًا
أن كل ما هو عظيم وجميل
أن كل ما يعتبره الإنسان عظيمًا وجميلاً
أعنى حنين روحى الرهيب،
يضحك فى عينى حارسى الواقف على أبواب مدريد
وإننى البارحة والليلة وغدًا
لا أستطع إلا أن أشعر بحبى له

١٩٣٧

قصة شجرة الجوز
ويونس الأعرج

إن لنا، هنا، صديقًا
من قرية قارياق فى تشر كبش
وهو ينطوى على أشياء
لا تنطوى عليها إلا الكتب الكبرى
فهو يهتم بالناس النيرين
وبالجريدة والراديو
وبالألغاز
واسمه يونس
وهو يشعل نارنا ويحمل لنا الماء
وعندما نتحدث معه عن الأشجار والأيام
يقول: «أكيد أن أحسن أيام عيشنا
هى التى ستأتى»
وفى انتظار ذلك تخيم على أحاديثنا

كآبة شجرة جوز قطعت وبيعت
نحن نعرف شجرة جوزه
فقد كانت فى الحوش
على يسار الباب
وكان يونس فى السادسة من عمره
عندما سقط من غصن شجرة الجوز
لذلك فهو يعرج
والبقر تحب القوم العرج
لأن العرج يفكرون كل الوقت
وقلوبهم طيبة
وهم يسيرون ببطء
البقر تحب القوم العرج
أما أشجار الجوز فلا تحب القوم العرج
فهم لا يستطيعون الوثوب إلى الثمرات
ولا تسلق الأشجار
ولا هز أغصانها
أشجار الجوز لا تحب القوم العرج
ما أغرب قصص الحب:
فإن كل الذين ليسوا محبوبين
لا يلقون بأنفسهم فى الساقية
والناس قوم شديدو الحذق
فالناس يعرفون كيف يحيون دون أن يكونوا محبوبين
ما أغرب قصص الحب
ما أغرب قصة حب شجرة الجوز
ويونس الأعرج

لقد كانت تدع ثمارها تسقط فى أيلول
وأوراقها كانت تظل خضراء حتى تشرين
وعندما كانت ساعة صلاة الفجر
تقبل مشرقة فوق دروب تشركيش
كانت أغصانها تستيقظ أبكر من النساء
وفى الشمس كان ظلها فتنة
وكانت توشوش وحدها النسيم
وكان يونس يمر تحتها كل صباح
لم يكن التفكير فى نظر يونس
أمرًا مقدسًا
ولا شقاء
ولا هناء
ولم يكن الموت فى نظر يونس قرية لا عودة منها
وإنما شيئًا لا يفكر فيه
لقد كانت تدع ثمارها تسقط فى أيلول
وحتى تشرين كانت أوراقها تبقى خضراء
وجذورها كانت تذهب بعيدًا تحت الأرض
وأغصانها كانت تتطلع إلى يونس من فوق
لقد كانت عالية وفسيحة على ما تشاء
وعندما تكون تحتها فى الليل
لا تستطيع رؤية النجوم
ويونس كان يجهل
لماذا تنطفئ النجوم فى النهار
ولماذا تستدير الكرة الأرضية
ولماذا تدور حول الشمس

نحن الذين حدثناه عن ذلك
فلم يفغر فاه
كانت تدع ثمارها تسقط فى أيلول
وحتى تشرين كانت تبقى أوراقها خضراء
ولم يكن بالإمكان إحاطة جذعها
حتى ولو التفت حولها أذرع ثلاثة رجال
وكان يونس يمر تحتها كل صباح
لم يكن لدى يونس أية فكرة
عن مسلمى الصين
ولا عن وحيد القرن
ولا عن الجراثيم التى تعيش
بالملايين فى قطرة واحدة
وعندما عرف كل ذلك
لم يفغر فاه
كانت تدع ثمارها تسقط فى أيلول
وكان فيئها فتنة فى الشمس
وكانت تسار وحدها النسيم
وحتى تشرين كانت أوراقها تبقى خضراء
وذات يوم بينما كان يونس
يشعل نارنا
ويعطينا الماء
قلنا له:
«نحن خدمك يا يونس،
وأنت مولانا»
ففغر يونس فاه.

فى أيلول كانت تدع ثمارها تسقط
ووحدها كانت تسار النسيم
كانت عالية وفسيحة على ما تهوى
ولم يكن بإمكان ثلاثة رجال
إحاطتها بأذرعتهم
وعندما تكون تحتها
لا تستطيع رؤية النجوم.
وكان الليل ينسكب فوقها كالماء
إن العمل شاق فى القرية
فهو يسحق جسدك فى البدء
فاقعد على الأرض
وانظر إلى كل جانب:
هل تدرى أين تكمن المصيبة؟
إنها تصيبك حتمًا. فلا سبيل إلى ردها
وقد رمت المصيبة يونس فى صميم قلبه
«نحن لم نعش فى هذه الدنيا
فنحن نمضى منها كما أقبلنا
يقولون إن استانبول جميلة جدًا
فلم يتح لنا الدهر الذهاب لرؤيتها
ولكن هل يعلم أحد لماذا
ثلاثون بيتًا على ستين
لا يملكون أغنامًا...؟»
ويونس لم يكن يملك غنمًا
«إن الحجر الذى ترشقه
لا يصيب العصفور الذى تريد

إن العالم اليوم يسير على قطار
إن العالم لم يعد بين قرنى ثور
فالثورة، عندنا، هى الأيدى والأرجل
إن بيع ثورك مؤلم
إن فيه نصف موتك
فإنك مدفوع إلى اقتراف كل شىء
عندما يموت ثورك...»
وقد باعوا ثور يونس.
«إن نهاية الدرب لا شك قريبة
وكل ما يجرى اليوم
يتجاوز حدود عقلنا
والأرض لم تعد إلا صابونًا:
فهى تزلق من بين يديك.
كل مخلوق له مأوى
إلا الذئب فلا مأوى له
وعندما تزلق الأرض من بين يديك
فإنك تصبح ذئبًا...»
وقد زلقت أرض يونس من بين يديه
كانت تدع ثمارها تسقط فى أيلول
وحتى تشرين كانت تظل أوراقها خضراء
وفى الشمس كان فيئها فتنة
وكانت عالية وفسيحة على ما تهوى
ويونس لا ينقطع عن التفكير بها
وكلما انحدر تذكرها
فجذورها كانت تذهب بعيدًا فى الأرض

وهى لم تكن تتطلب شيئًا
بل كانت توشوش النسيم وحدها
وقد أصابت الوحدة يونس بضربة قوية
فانتهى بأن سفح عرقه على أراضى الآخرين.
وخشية أن تختفى شجرة جوزه فى الليل
كان يرقبها ساهرًا حتى الفجر.
وكانت جذورها تذهب بعيدًا فى الأرض
وكانت أغصانها تتطلع إلى
يونس من عل.
ومن شجرة الجوز يصنعون الموائد
فماذا يصنعون من يونس الأعرج؟
إن البرد آت. فآو نفسك إن شئت
من شجرة الجوز يصنعون الموائد
إنك لن تستطيع مقاومة الضربة
فبع شجرة جوزك، يا يونس
إن القوم الذين يملكون
لا ينسجون الصوف للذين لا
يملكون شيئًا
إلى الجحيم شجرة الجوز، يا يونس.
إلى الجحيم، أنت
فى الصقيع، تهيم الذئاب جائعة
ومن شجر الجوز تصنع الموائد
العقل يأتى متأخرًا إلى رأس التركى
فبع شجرتك يا يونس
إن القوم الذين يملكون لا ينسجون

ثياب الصوف للذين لا يملكون
فإلى الجحيم شجرة الجوز يا يونس
وإلى الجحيم أنت
فهى سقف قش للذئب الذى لا يملك سقف القش
لقد كانت نصف شجرة ونصف إنسان
بع شجرتك يا يونس.
وكالميت العارى تمددت على الثلج
ومن شجر الجوز تصنع الموائد
فقطعوا أذرعتها وأغصانها
بع شجرتك يا يونس
فإن القوم الذين يملكون
لا ينسجون الصوف للذين لا يملكون
إلى الجحيم شجرة الجوز يا يونس
إلى الجحيم، أنت.
«إن الصباح ملك إنسان
والشمس لا تبقى دائمًا وراء الغمام
وإن أجمل سنى العيش
هى حتمًا التى ستأتى...»
وبانتظار ذلك
تخيم على أحاديثنا
كآبة شجرة الجوز التى قطعت وبيعت.

١٩٤٠

رحلة إلى برشلونة

على سفينة يوسف المسكين

فى السجن، على صخرة العين
رسم يوسف المسكين
سفينته
سجين كان يشرب من العين
ويرى مقدمة سفينته الحادة
تنزلق على بحار لا جدران لها.
وقرب العين كانت شجرة بيضاء
شجرة خوخ.
انشر شراعًا آخر يا يوسف يا مسكين
واجذب إليك الميناء التى تقصد
واقطع ورقة خوخ
لتستطيع حمامات السجن
أن تتبع آثارك.

وخذنى أيضًا معك، يا يوسف
خذنى على سفينتك
فإن متاعى ليس ثقيلاً
إنه كتاب ودفتر وصورة
فامض بنا امض
إن العالم يستحق الجهد لأن تراه.
خل قومك اله إلى يسارك
ومنارة هيلوس إلى يمينك
فرياح سبوراد
تنفخ فى فم أشرعتنا
أغنية حارة.
نحن نطوى ميناء أثر ميناء
والبحار تسكت على المرافئ.
أية حياة مرحة ولا نهائية
هى البحار
وفى أغلب المرافئ لايوم
يسهل الموت يا يوسف
وتصعب الحياة.
ها هو الأدرياتيك
أننا نلتقى بزورق صياد أسماك
وعندما سألنا عن أخبار إيطاليا
يجيبنا عجوز من أنكونا
وهو يصف سمكاته المتحركة:
«لا شىء عن إيطاليا عندى مما لا تعلمونه
هنا يوجد إنسانان سعيدان:

النجاشى الهارب، والدوتشى الظافر»
إنه على حق، ذلك الصياد الأنكونى
فالدوتشى قد توج خطبه المتدفقة
بغار الدم الأحمر
والنجاشى بعد أن خرج من قصر بلا حمام
ذهب إلى قصر فيه حمام.
إنه الليل.
نحن أمام صقلية.
ويمر مركب مرتفع الجوانب
أمام سفينتنا حتى كاد يلامس أشرعتها
طبقات فوق طبقات
مشعشعات بالأضواء
إنه يشبه عالمًا سقط من النجوم
على الماء.
فتأملته أنا ويوسف رافعى الرأس
ودخلنا سيجارة بعد أخرى
حتى اختفى عن ناظرنا.
وهدأ البحر
وبدت حمرة فى السماء
إنه الفجر
وانتهى الليل الذى كان يلوح
لنا بلا نهاية
هذه أمامنا برشلونة الجبهة الشعبية
لقد انتهت سفرتنا
فاحمل المرساة والأشرعة إلى البحر!

إن الحمامات التى كانت تتبع آثارنا
عادت لتقول للإخوان
إننا بلغنا شاطئ الأمان.
ويحرك يوسف نحو المدينة التى تقابلنا
غصن الخوخة المزهرة
مرسلاً شتيمة رائعة
لأسوار المدينة وأغلاها
فنقلت بصرى بينه وبين برشلونة:
وعلى المدينة، هناك، فى قرارة المشهد
رأيت لهيبًا يتلوى
هناك رأيت جنبًا إلى جنب
أطياف لينين وباكونين وروبسيير
والفلاح محمد الذى يرقد فى دوملوبينار.
وهكذا رأيت أنا ويوسف
من سفينتنا التى ودلت على عين السجن
رأيت الحرية تقاتل بلحمها ودمها
فى برشلونة عند الفجر
فتأملناها بأعين ملتهبة
ولمسنا الحرية بأيدينا الجائعة
كما تلمس يدا الرجل
جلد امرأة دافئ وأسمر

١٩٤٠

عن الموت

ادخلوا، يا إخوانى، واجلسوا
أهلاً بكم، إنكم تحملون الفرح إلىَّ.
أنا لا أعلم أنكم دخلتم من النافذة إلى قاووشى
وأنا أغط فى نومى
فلم تقبلوا الزجاجة ذات العنق الدقيق
ولا علبة الأدوية الحمراء.
أنتم هنا حول سريرى، أيديكم مشدودة إلى بعضها
وعلى وجوههم وهج النجوم.
يا للغرابة
كنت أحسبكم أمواتًا
ولما كنت لا أؤمن بالله ولا باليوم الآخر
فقد كان يؤسفنى الا أستطيع
أن أقدم إليكم مرة أخرى حفنة من التبغ.
يا للغرابة

كنت أحسبكم بين الأموات
لقد أتيتم من النافذة إلى قاووشى.
فادخلوا بالله عليكم واجلسوا، يا إخوانى
أهلاً بكم، فإنكم تحملون الفرح إلى نفسى.
يا هاشم يا ابن عثمان
لماذا تحدق فى بشكل غريب؟
عجبًا
يا هاشم يا ابن عثمان،
ألم تمت، يا أخى،
فى استانبول، فى الميناء،
عندما كنت تشحن الفحم على مركب أجنبى؟
فأخرجتك من هناك رافعة المركب
وقبل أن تذهب لتستريح نهائيًا
غسل دمك القانى رأسك الأسود
ومن يدرى أية آلام عرفت.
لا تقفوا هكذا بل اجلسوا.
لقد كنت أحسبكم بين الأموات
لقد دخلتم من النافذة إلى قاووشى
وفى وجوهكم وهج النجوم
أهلاً بكم، إنكم تحملون الفرح إلى نفسى.
يا يعقوب، يا ابن قرية قيالار
تحياتى، أيها العجوز العزيز،
ألم تمت أنت أيضًا؟
ألم تذهب إلى المقبرة الموحشة
تاركًا لأطفالك الجوع والملاريا؟

لقد كان الجو حارًا ذاك اليوم
ألم تمت إذن؟
وأنت أيها الكاتب، يا أحمد جميل؟
لقد رأيت بأم عينى
نعشك ينزل تحت الثرى،
وإنى أتذكر أن نعشك
كان أقصر قليلاً من قامتك.
دع ذلك جانبًا، يا أحمد جميل،
إننى أرى أنك لا تزال على عادتك القديمة.
فإن ما ترى قنينة دواء لا قنينة عرق.
لقد كنت تشرب كثيرًا
لتستطيع جمع خمسين قرشًا فى اليوم
ولتستطيع نسيان العالم فى وحدتك.
لقد كنت أحسبكم أمواتًا، يا إخوانى،
إنكم فوق رأسى، وأيديكم إلى بعضها
اقعدوا يا إخوانى اقعدوا
أهلاً بكم، فإنكم تحملون الفرح إلى نفسى،
يقول الشاعر الفارسى: «الموت حق
فهو يصيب الفقير والشاه بنفس العدالة»
لماذا تعجب ياهاشم؟
ألم تسمع يومًا بشاه مات
بضربة سطل، فى قاع مركب؟
«إن الموت حق» يقول الشاعر الفارسى.
كم أنت جميل يا يعقوب، عندما تضحك
أنا لم أرك يومًا تضحك هكذا فى حياتك...

ولكن اصبر حتى أنهى
إن الموت حق، يقول الشاعر الفارسى...
دع هذه القنينة جانبًا، يا أحمد جلال
إنك تغضب بلا جدوى، فأنا أعلم ماذا تريد
أن تقول
فلكى يكون الموت حقًا وعدلاً
يجب أن تكون الحياة عادلة.
إن الشاعر الفارسى...
لماذا يا إخوانى، لماذا تتركوننى وحيدًا هكذا
إلى أين أنتم ذاهبون؟

١٩٤٦

فى الأعماق

(مقطع من ملحمة شعرية عن الحرب العالمية الثانية)

أنا راقد فى قاع الأطلنطيك،
ممددًا على طولى،
أنا راقد فى قاع الأطلنطيك
متكئًا على مرفقى.
أنا أتطلع إلى فوق،
فأرى غواصة،
هناك عاليًا، فوق رأسى،
غاطسة إلى عمق خمسين مترًا،
منزلقة كالسمكة،
حيية، وحيدة، فى وهج المياه
ذات زرقة الزجاج.
ففى أعلى، تحترق ألوف الشمعات،
وضاءة،

خضراء، فى أعلى،
فى صميم الضوء، فى أعلى،
وفى أعلى، يا روحى المنتعلة
أحذية من حديد،
يتحرك جسد عالمنا البكر.
فى أعلى، نبات منوع الألوان،
وأشجار بلا جذور،
وكائنات العالم البحرى المزوبعة،
فى أعلى، الحياة والملح واليود،
فى أعلى بدءنا، يا صديقى،
بدءنا.
وفى أعلى غواصة من فولاذ،
غادرة مخاتلة.
وإلى أربعمائة متر، ينفذ الضوء،
وبعد ذلك يبدأ غور الظلمات
العميق.
أنا من وقت لآخر،
تجتاز الظلال
أسماك غريبة،
زارعة وراءها الضوء.
ثم، لا شىء بعد ذلك
لا شىء غير طبقات الماء الكثيفة
الحاسمة والمطلقة
منحدرة إلى القاع.
وأنا، فى الأسفل الأسفل،

ممدد على طولى،
فى قاع الأطنلطيك،
أتطلع إلى فوق،
متكئًا على مرفقى.
وعلى حين بغتة، فى أعلى، بعيدًا فى الأعلى،
تظهر شاحنات البترول،
فى صف واحد.
فأرى أسفل هياكلها الخارجية.
وفجأة قذفت الغواصة طوربيدًا،
طوربيدًا
طوربيدًا يا صديقى.
فارتعدت شاحنات البترول.
وتطلعت إلى دفقها
فقد كانت خائفة فزعة.
وبدت هياكلها كأنها تفتش
عن معونة،
شبيهة برجال يسعون لحماية بطونهم
أو جنوبهم المكشوفة من طعن الخناجر.
وفجأة، أصبحت الغواصات ثلاثة،
ثم ستة، فسبعة، فثمانية.
وبدأت الشاحنات تميل للغرق
مطلقة نيرانها على العدو.
فأشعل المازوت والبترول والبنزين
صفحة البحر.
لقد كان بحر من اللهب يسح على

المياه الزيتية واللزجة.
بحر من اللهب، يا صديقى،
أحمر كله وأزرق كله وأسود كله
لقد كانت رؤيا شبيهة بأوائل أيام
تكوين الأرض
وكانت تفجرات وتفسخات مزيدة
قرب سطح البحر وفى المياه المزوبعة
انظر إلى الشاحنة التى كانت تهوى،
غامضة،
إلى القاع كالمطوف فى نوه
بمشيته تحت ضوء القمر!
ثم انتهى كل ذاك الاضطراب
وهبطت الشاحنة دون توقف
نحو القاع
فدخلت فردوس العالم البحرى
واختفت فى الظلمة الرطبة العميقة.
إن السطح مغطى الآن بأناس
يتدافعون نحو الأعماق
كغبار معلق،
فيتمددون وينطوون على أنفسهم،
رأسهم إلى فوق، ورأسهم إلى تحت،
باحثين بأيديهم وأرجلهم
عن أشلائهم،
ولكن دون جدوى!
وفجأة غرقت غواصة،

قربى
وكغطاء نعش محطم،
فتح بابها،
وخرج منها هانس موللر،
من ميونيخ.
جندى بلا رتبة،
من الكتيبة الرابعة،
فى اللواء الأول،
من فرق الصدام الهتلرية للمشاة.
وقد كان هانس موللر، من ميونيخ،
مغرمًا بثلاثة أشياء:
١- اليونور ذات الزيد الذهبى
٢- البيرة البيضاء،
والمكتنزة كبطاطا بروسيا الشرقية
٣- الملفوف الأحمر الذى تنتجه مدينته.
وقد كان عليه ثلاثة واجبات:
١- أن يحيى رئيسه، وهو يخبط كعبيه،
فى مثل هزيم الرعد
٢- وأن يحلف بمسدسه،
٣- وأن يقذف الشتائم،
ثلاث مرات على الأقل،
ضد جدود اليهود
الذين كان يخاطبهم فى طريقه
ثلاثة مخاوف
كانت تسيطر على رأس هانس موللر

ولسانه وقلبه
١- الفوهرر
٢- الفوهرر
٣- الفوهرر
هانس موللر، من ميونيخ،
كان يعيش سعيدًا حتى ربيع ١٩٣٩،
بحبه وواجبه وخوفه،
وقد كان يعجب لإليانور البيضاء
المكتنزة مثل بطاطا بروسيا الشرقية
كيف كانت تشكو من قلة الزبد والبيض
بصوت جليل،
مثل «دو» فى أوبرا واغنر،
وكان يقول لها بلهجة المرارة:
فكرى قليلاً، يا إليانور،
إننى سأضع زنارًا براقًا كالذهب
وحذاء يلمع ويقعقع،
وستتزينين بأزهار البرتقال،
وسنمر تحت قوس من السيوف،
المتشابكة فوق رأسينا.
وأكيد أنه سيكون لنا
اثنا عشر ولدًا
جميعم من الذكور.
فكرى قليلاً، يا إليانور،
لو كنا انقطعنا عن صنع البنادق والمدافع
لننصرف إلى أكل الزبدة والبيض ولحم الخنزير

كيف يصبح بوسع أولادنا الاثنى عشر
أن يحاربوا، يومًا ما.
ولكن أولاد الميونخى الاثنى عشر
لم يتمكنوا من القتال،
لأنهم لم يولدوا،
إذ إنه قبل أن يتم العرس نهائيًا
ذهب هانس موللر، من ميونيخ،
ذهب بنفسه إلى الحرب.
والآن، فى نهاية خريف ١٩٤١
هو هنا، أمامى،
فى أعماق الأطلنطيك
بشعره الأشقر الرطب،
والحسرة على أنفه الحاد الأحمر،
والحزن على طرف شفتيه،
إنه ينظر إلىَّ من بعيد،
رغم كونه قريبًا منى
تمامًا كما اعتاد الأموات أن ينظروا.
أنا أعلم، أنا، أنه لن يرى بعد اليوم اليانور،
وأنه لن يشرب البيرة ذات الزبد الذهبى
ولن يأكل الملفوف الأحمر
أنا أعلم كل ذلك، يا كنزى الغالى،
ولكنه لا يعلم شيئًا.
فإن فى عينيه دموعًا صغيرة،
لا يعرف كيف يمسحها،
وأن فى جيبه مالاً

لا يزيد ولا ينقص.
إنه لن يستطيع أن يقتل أحداً
ولا أن يقتل.
وبعد وقت قليل سينتفخ جسمه،
وسيصعد إلى سطح البحر،
وستهدهده الأمواج،
وستأكل الأسماك
أنفه الدقيق.
وعندما كنت أفكر بكل ذلك،
وأنا أنظر هانس موللر،
ظهر فجأة قربي،
هارى طومسون
وأصله من مرفأ ليفربول.

رباعيات

(١٩٤٥)

الرباعيات نوع شعرى شائع عند الفرس والعرب. وقد استخدم خاصة للتعبير عن أفكار فلسفية. والرباعى يتألف من أربعة أبيات من الشعر يأتى أولها وثانيها ورابعها على قافية واحدة. أما البحر فيختلف أحيانًا بين بيت وآخر إذ إنه يتبع قواعد معقدة. والأبيات الثلاث الأولى تهيئ، إما بنادرة أو بوصف، البيت الرابع حيث تتفتق الفكرة بصورة أخاذة، فيتوجب إذن تركيز الفكرة ويتحتم أن يحسن استهلال الرباعى وختامه. والرباعيات أحد الأنواع الشعرية النادرة فى الشرق التى يكتمل فيها الموضوع، بدل أن يتناثر فى تغييرات متنوعة.

وإن رباعيات جلال الدين الرومى، الشاعر الصوفى التركى الذى عاش فى القرن الثالث عشر تعد مع رباعيات عمر الخيام من أكبر روائع اللغة الفارسية فهى تنشد الحب الصوفى وتعطى بنفس الوقت مفاتيح الفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

وناظم حكمت يحاول تقليدهما فى أشعار طليقة ولكنه يعدل فلسفة الحلول بالفلسفة المادية، مستعينًا بنفس الكلمات التى كان يستخدمها جلال الدين، وهو

يخاطب حبيبة حقيقية، هى امرأته، تختلط أحيانًا مع المثل الأعلى الذى حبس من أجله.

قد كان حقيقيًا العالم الذى كنت تراه يا جلال الدين،
لا خرافة لا يعلم حقيقتها أحد
وقد كان كبيرًا، غير مخلوق، ولم يرسمه
سبب أول لا أدرى كنهه.
وإن أجمل الرباعيات التى نطق بها فمك
والتى انبثقت من لحمك ودمك
ليست تلك التى تستهلها هكذا:
«الصورة ليست إلا ظلاً»
إن روحى انعكاس العالم الذى يحيط بى
وهى لا توجد بدونه، ولا تتضح أى سر غيره.
وإن الصورة الأكثر قربًا أو بعدًا من الواقع
هى جمال حبيبتى التى أعكس نورها.
محال علىّ أن أضم خيالك
الذى رسخ فى ذاتى
ومع ذلك، فأنت هنا، فى بلدى،
وفى لحمى وعظمى.
حقيقة هما عيناك وفمك الأحمر
الذى منع عنى شهده،
وتراخيك كالماء المتمردة
وبياضك الذى لا تبلغه شفتى.
حدثنى يومًا خيال حبيبتى:
أنا موجود وهى لا، قال لى من قرارة المرآة.
فضربت المرآة، فتحطمت،

واختفى الخيال.
أنا بقيت حبيبتى هناك
سليمة وفى عافية.
قبلتنى وقالت:
إنها شفاه حقيقية كالعالم
وقالت: «إن هذا الطيب يفوح
من شعرى لا من خيالك
وإن النجوم موجودة
رغم أن العميان لا تراها
فتأملها فى السماء
أوفى عينى».
كل يوم يقربنى أكثر
إلى ميعاد الرحيل.
فوداعًا يا أرض حبيبتى
وسلام عليك أيها العالم
عيناك ·
قفير يزخر بالشهد
يزخر بالشموس
إن عينيك يا حبيبتى ستمتلئان بالتراب
والشهد سيملأ قفرانًا أخرى
لا من النور،
ولا من الطين،
ولكن من نفس الصلصال
جبلت حبيبتى وقطتها الزرقاء
واللؤلؤة التى تحمل فى عنقها.

يقول الخيام: «املأ رأسك بالخمر
قبل أن يمتلئ بالتراب».
ولكن الرجل ذا الحذاء المثقوب يقول،
وقد مر أمام حديقة الورود:
«أنا جائع فى هذا العالم الذى يحمل
من القمح الأكثر مما يحمل من نجوم،
أنت تحدثنى عن الخمر، ونقودى
لا تكفينى لشراء الخبز».
الحياة تمضى، فتمتع بالبرهة التى تحيا
قبل أن ترقد رقادًا لا أحلام فيه
إنه الفجر، أيها الفتى، فصب الخمر
فى كأس البلور.
واستيقظ الفتى فى غرفة
دون ستائر، وملؤها الصقيع
فقد كانت صفارة المصنع
تزعق فلا ترحم أى تأخير.
لقد طلع النهار شيئًا فشيئًا
والكون أضاء كالماء الذى
ترسب فيه عكره
وها أنت بغتة، يا حبيبتى
وجهًا لوجه معى:
وهج، وهج، وهج إلى اللانهاية.
إنه يوم شتاء، دون كدر،
شفاف كالزجاج
العض فى قشرة التفاحة

السليمة والبيضاء
وحبك يا حبيبتى
يشبهان هناء
شم الهواء
فى غاية صنوبر.
من يدرى فقد كان من الممكن
ألا نحب بعضنا إلى هذا الحد
لو لم تكن روحانا تريان بعضهما
البعض من كل هذا البعد.
ومن يدرى، فلربما لم نكن
قريبين إلى هذا الحد،
لو لم يفرق شملنا
الزمان.
وهكذا يا كنارى، لا يوجد
بينى وبينك غير تفاوت فى الدرجة
فإن لك أجنحة
ولا تستطيع الطيران
أما أنا فلى يدان
ولا أستطيع التفكير.
«انتهى كل شىء»
سوف تقول يومًا ما أمنا الطبيعة
انتهى مجال الضحك والبكاء
يا بنى
ومن جديد ستبدأ الحياة الرحبة
التى لا تبصر ولا تتكلم ولا تفكر.

رسائل وقصائد

١٩٤٢ - ١٩٤٦

- ١ -

يا كنزى الوحيد فى هذا العالم
أنت تقولين لى فى رسالتك الأخيرة
«إن رأسى ينفجر وإن قلبى يتفطر
ماذا لو شنقوك؟
وماذا لو فقدتك؟
إننى سأموت»،
إنك ستعيشين يا امرأتى
فإن ذكراى ستتبدد
كدخان فى الريح
إنك ستعيشين، يا أخت قلبى
يا ذات الشعر الأحمر
فإن الأموات لا يشغلون

أناس القرن العشرين أكثر من عام...
الموت.
أأموت متأرجحًا على طرف حبل؟
إن قلبى لا يستطيع الإذعان
لهذه الميتة.
ولكن
اطمأنى بالاً، يا حبيبتى
فإذا قدر ليد غجرى سوداء وشعراء
أن تطوق بالحبل عنقى
فسيتلمسون عبثًا
فى عينى ناظم الزرقاوين
آثار الخوف.
وفى مغيب آخر أيام عمرى
سوف أراك وأرى أصدقائى
ولن أحمل معى تحت الثرى
غير حسرة الأغنية التى لم تنته.
يا زوجتى،
يا نحلتى، يا ذات القلب الذى من ذهب
يا نحلتى يا ذات عينين أحلى من الشهد
لماذا كتبت إليك أنهم يطلبون إعدامى؟
فإن قضية محاكمتى ليست إلا فى بدايتها
وفوق ذلك، فإنه لا يمكن نزع رأس إنسان
كما ينزع رأس لفت.
هيا وخففى عنك
فإن ذلك ليس إلا إمكانيات بعيدة

وإذا كان لديك مال
اشتر لى سروالاً داخليًا من الصوف
فإن داء الأعصاب لا يزال يلازم فخذى
ولا تنسى أنه لا يليق بامرأة سجين
أن تحمل أفكارًا سوداء.

- ٢ -

لقد حفرت اسمك بظفرى
على جلد سوارى
فأنت تعلمين أنه لا يوجد
فى سجنى أية سكين ذات مقبض صدفى.
«ممنوع استعمال الأدوات القاطعة»
ولا شجرة شربين ينطح رأسها السماء
نعم إنه يوجد فى الحوش شجرة صغيرة
ولكن ممنوع حتى على السحاب
أن يعلو رؤوسنا...
أنا لا أعلم شيئًا
عن عدد الذين يعيشون معى فى نفس البناء.
أنا وحدى بعيد عنهم
وهم جميعهم بعيدون عنى.
فليس يسمح لى إلا أن أتكلم مع نفسى
وهذا ما أعمل
ولكن لما كنت أجد ثرثرتى تافهة
فإننى أغنى، يا امرأتى
وهل تصدقين؟
إن صوتى الذى تعرفين،

هذا الصوت المنكر الخلو من كل طرب،
يتغلغل فى نفسى
حتى ليتفطر قلبى.
وكاليتيم فى القصص الباكية
اليتيم الذى يسير حافيًا على ثلج الدروب
يود قلبى أن يبكى
ماسحًا عينيه الزرقاوين
وأنفه الصغير الصغير.
أن يبكى........
ليس فى سبيل إيقاف المسافر
المتطى جوادًا عندميًا
على الدرب.
أن يبكى
ليس فى سبيل التهرب من سماع
صرخات الطيور السوداء، الجائعة،
أن يبكى، ويرتعد فى الريح،
أن يبكى وحيدًا، ولنفسه،
يا للغرابة!
أنا لا أخجل من حالة قلبى هذه
أنا لا أحمر خجلاً
من رؤيته ينطوى على نفسه
منكس الرأس
ومن الإحساس به ضعيفًا هكذا
وأنانيًا هكذا
وإنسانيًا بكل هذه البساطة.

قد يكون الأمر مجرد نوبة
وقد يكون لكل ذلك أسباب
نفسانية وعضوية،
وقد يكون ذلك عائدًا
إلى وجود هاتين النافذتين المسدودتين
بقضبان الحديد،
وإلى هذه المدفأة،
وهذه الجرة الخزفية،
وإلى هذه الجدران الأربعة،
التى لا تسمعنى، منذ أشهر،
من الأصوات البشرية غير صوتى.
إنها الساعة الخامسة يا حبيبتى.
فى العالم الخارجى.
بكل عطشه وهمسه الغريب، وسطحه الترابى
وجداره الهزيل المشوه
الساكن أبدًا فى وسط اللانهايات
فى العالم الخارجى،
بكل صناعاته وغرائبه،
وبكل ما يلزم لدفع الإنسان
إلى الجنون.
فى العالم الخارجى
الأحمر الأحمر فى الفضاء المقفر من الأشجار،
يهبط مساء
من أمسيات الصحراء.
بعد قليل سيقبل الليل فجأة

وسيأتى ضياء ليحيط بالجواد الهزيل
والطبيعة التى فقدت رجاءها
والتى تستلقى هناك مثل ميت ذى وجه
قاس
سوف تملأ بغتة بالنجوم فراغه من الأشجار.
عند ذاك ستكون النهاية المعلومة
للقضية
يعنى أن كل شىء سيكون جاهزًا
سيكون كل شىء فى مكانه
وسيكتمل الحفل لبعث الحنين
المهيب.

- ٣ -

سأقول لك شيئًا
من الأهمية بمكان
فالإنسان تتغير طبيعته
عندما تتغير إقامته.
إننى، هنا، أحب النوم الذى يأتى كيد صديقة
ليفتح قفل بابى
وليقلب الجدران التى تحيط بى.
وكما فى التشابيه المبتذلة
أنا أنزلق مع الغفو
كما ينزلق الشعاع على المياه الساجية،
وأحلامى آيات رائعات.
فأنا دائمًا فى الخارج،
حيث الكون مشرق، حيث الكون جميل،

وحتى الآن لم أجد نفسى
سجينًا مرة واحدة فى أحلامى.
ولم أقع من الجبل إلى الهاوية.
ستقولين: «إن أحلامك مرعبة».
لا ، يا زوجتى
إن لى من الشجاعة ما يسمح لى بأن
أترك للحلم نصيبه من الحلم.

- ٤ -

لو أرسلت لى مدينتى، استانبول
بواسطة المبعوث السيد نورى
صندوق عروس، صندوقًا من السرو
ولو فتحته تاركًا جرس القفل
الصغير يرن: «تششششششن»
فيخرج منه لفتان من كتان شيله،
وزوجان من القمصان،
ومناديل بيضاء مطرزة بالفضة،
وأزهار لاوند فى كيس صغير من التول،
وأنت ـ
لو خرجت أنت من داخله،
فأجلسك على حافة السرير
وسأضع تحت قدميك جلدى
المخيف كجلد الذئب
وسأبقى أمامك خافض الرأس
معقود اليدين.
وسأتأملك، آه يا فرحى،

سأتأملك مسحورًا
كم أنت جميلة، يا إلهى، كم أنت جميلة
ففى ابتسامتك هواء استانبول وماؤها
وفى نظرتك صبابات مدينتى،
ايه يا سلطانتى، ايه يا مولاتى،
لو أنك سمحت، ولو تجرأ عبدك ناظم،
فسيكون كمن يتنشق ويقبل
استانبول على خدك.
ولكن حذار،
حذار أن تقولى لى: «اقترب»
فإنه يخيل إلى أنه لو مست يدك يدى
لوقعت ميتًا على الباطون.

- ٥ -

فى السهل تتألق الأشجار
بمجهود أخير،
تألق الذهب
والنحاس
والبرونز والخشب،
وأرجل الثيران تغرز بحنان،
فى الأرض الرطبة،
والجبال الرمادية البليلة
تغرق فى الدخان.

- ٦ -

قضى الأمر
إن الخريف قد يكون انقضى اليوم

فالبط البرى مر منذ برهة ملء أجنحته،
هو لا ريب ذاهب إلى بحيرة ايزنيق.
وفى الهواء يخفق شىء ندى،
شىء برائحة الدخان.
إن فى الهواء رائحة الثلج....
آه! لو أكون الآن، فى الخارج.
على جواد يركض
نحو الجبال.
إنك ستقولين: ولكنك لا تحسن ركوب الخيل.
لا تمزحى ولا تحسدينى،
فقد خلقت لنفسى حبًا جديدًا فى السجن.
فإننى أحب الطبيعة بقدر حبى لك،
أو ما يقارب قدر حبى،
وأنتما الاثنان بعيدان...

- ٧ -

عندما سنخرج من بوابة القلعة
كى نذهب للتفرج على الموت
فسنقدر أن نقول، يا حبيبتى
ونحن نتأمل لآخر مرة المدينة:
رغم أنك لم تضحكينا كثيرًا
فإننا عملنا كل ما بوسعنا
لإسعادك
وإن سيرك نحو الهناء يطرد
والحياة تتابع سيرها...
إن ضميرنا مرتاح

فإن فى روحنا طعم
الخبز الذى كسب بعرق الجبين.
إننا نحمل فى روحنا طعم الأسف
لترك ضيائك،
«ها نحن قد أتينا ومضينا
فاسعدى يا مدينة حلب»(١)

- ٨ -

الريح تنسكب وتمضى،
والريح الواحدة لا تحرك أبدًا مرتين
غصن الكرز الواحد.
الطيور تغنى فى الشجرة
ويود أجنحة لو تطير.
الباب مغلق هناك
فيتحتم اقتحامه
إذ تتحتم رؤيتك، يا حبيبتى.
لتكن الحياة مثلك جميلة
ولتكن الحياة صديقة وحبيبة مثلك.
أنا أعلم أن حفلة البؤس لما تنته بعد.
ولكنها ستنتهى يومًا...

- ٩ -

إننى أتطلع إلى الأرض وأنا راكع.
إننى أتطلع إلى الحشائش،
وأتشوف إلى الهوام،

---

(١) عامى تركى.

وأتطلع إلى اللحظة المزهرة
المطلقة الزرقة
أنت كأرض الربيع، يا حبيبتى
فأنا أتطلع إليك.
إننى مستلق على ظهرى فأرى السماء،
وأرى أغصان الشجرة،
وأرى البجع السابح فى السماء.
أنت كسماء الربيع، يا حبيبتى،
فأنا أراك.
لقد أشعلت النار فى الليل، فى الريف،
إننى ألمس النار
وألمس الماء
وألمس الحرير
وألمس الفضة.
أنت كنار خيمة تحت النجوم،
فأنا ألمسك.
أنا أعيش بين الناس، وأنا أحب الناس
أنا أحب العمل
وأحب الفكر
وأحب نضالى
وأنت إنسان فى نضالى
فأنا أحبك.

- ١٠ -

فى ليلة الخريف هذه،
أنا ملئى كلماتك،

كلمات خالدة خلود الزمن، والمادة،
كلمات بثقل اليد،
كلمات مشعشعة كالنجوم،
وقد بلغنى كلماتك،
كلماتك المحملة بك،
كلماتك، يا أمى
كلماتك، يا صديقتى،
وقد كانت حزينة ومريرة
وكلها شجاعة وبطولة،
لقد كانت كلماتك رجالاً.

- ١١ -

لقد أدركونا،
فنحن، الاثنان، فى السجن،
أنا داخل الجدران،
وأنت خارجها.
ولكن ما هو أسوأ من ذلك
هو أن نحمل السجن فى نفوسنا.
وكثير من الناس وصلوا إلى هذا الحال
عن وعى أو لا وعى،
أناس شرفاء، وعاملين وطيبين،
كان بوسع الإنسان أن يحبهم كما أحبك.

- ١٢ -

يقولون إن البؤس فى استانبول
يفوق كل وصف
ويقولون إن المجاعة تحصد الناس

ويقولون إن الناس يتخبطون فى السل
وإن صبيات، هكذا،
بين الأنقاض، وفى صالات السينما....
أخبار سيئة عن مدينتى البعيدة
مدينة الشرفاء والكادحين والفقراء،
عن مدينتى الحقيقية، استانبولى،
المدينة التى تقطنين فيها يا حبيبتى،
المدينة التى أحملها على ظهرى وفى جرابى
من منفى إلى منفى، ومن سجن إلى سجن،

- ١٣ -

المدينة التى أحملها فى قلبى كما يحمل الخنجر،
وكصورتك فى عينى.
فى أوانى الخزف لا تزال بعض القرنفلات
النادرة.
أما فى السهل، فقد حرثوا الأرض.
إنهم يبذرون الحبوب فى انتظار الشتاء،
والزيتون قد تم قطافه.
وهم يحفرون المساكب لغراس الربيع.
وأنا. الذى يملأنى فراغك
ويتملكنى نفاد الصبر الذى يسبق الأسفار الكبرى،
أنتظر كسفينة راسية فى ميناء بروصة

- ١٤ -

من فوق سطوح مدينتى البعيدة
وأعماق بحر مرمر،
وعبر أراضى الخريف،

وصلنى
صوتك الرطب، الناضج.
ولم يدم ذلك غير دقائق ثلاث
ثم انهار التلفون.

- ١٥ -

إنه الثلج، سقط،
بغتة، ودون علمنا فى الليل
واستهل الصباح بالغربان،
التى طارت عن الأغصان البيضاء.
إنه الشتاء على مدى البصر
فى سهل بروصة،
فكأنه اللاتناهى أصبح منظوراً.
وهكذا، يا حبيبتى،
بعد الصراع البطىء الفاعل تحت الأرض
يتغير الفصل بقفزة.
وتحت الثرى
الكادح والأبى
تتابع الحياة سيرها

- ١٦ -

نحن الاثنان، نعلم، يا حبيبتى،
فقد علمونا
كيف نجوع وكيف نبرد
وكيف نقضى من التعب
وكيف نعيش منفصلين.
إننا لم نبلغ حد القتل

إنه لم يتهيأ لنا، بعد، أن نموت
ولكننا كلانا، نعلم، يا حبيبتى
ونستطيع أن نعلم الآخرين
النضال فى سبيل قومنا،
ومحبة كل يوم أقوى
ومحبة كل يوم أفضل.

- ١٧ -

لقد دقت
الساعة التاسعة على الساحة.
وبعد قليل سوف تغلق أبواب غرف السجن.
لقد طال الأمر هذه المرة:
إنها لطويلة قليلاً ثمانى سنوات.
فالعيش يا حبيبتى،
عمل ملىء بالوعود.
العيش يا حبيبتى
شىء جدى مثل حبك.

- ١٨ -

دافئة ومرتعشة،
كالدم الذى ينشخب من الوريد،
شرعت رياح بلودوسب تهب.
إننى أصغى للهواء.
النبض يتباطأ.
وعلى قمم «ولودة»، لابد أن يكون الثلج
يتساقط.
ولابد أن تكون الدببة، هناك على الأعالى

ترقد، رائعة، شيقة،
على أوراق الكستناء الحمراء.
والصفصاف يتعرى فى السهول،
وديدان القز سوف تسجن نفسها من برهة لأخرى،
والخريف سوف ينقضى من وقت لآخر،
والأرض سوف تعود من وقت لآخر،
إلى غفو أيام التكوين...
ونحن سوف نقضى شتاء آخر
متدفئين بنار غضبنا الأكبر
ورجائنا الأقدس.

- ١٩ -

إن ولدنا مريض،
ووالده فى السجن
رأسك المتثاقل ملقى بين يديك
التعبتين.
إننا فى النقطة التى وصل إليها العالم.
من الأيام السوداء إلى الأيام الخيرة
سوف يحمل أناس الناس.
وسوف يشفى ولدنا،
وسوف يخرج والده من السجن،
وسوف تضحكين فى قرارة عينيك الذهبيتين،
إننا فى النقطة التى وصل إليها العالم.

- ٢٠ -

إن أجمل البحار
هو ذلك الذى لم نذهب إليه بعد.

وأجملِ الأطفالْ
من لمْ يكبر بعد.
وأجمل أيامنا
لم نعشها بعد.
وأجمل ما أود أن أقوله لك
لم أقله بعد.

- ٢١ -

ماذا تعمل الآن،
الآن فى هذه اللحظة؟
أهى فى بيتها؟ أم فى الشارع؟
أم فى عملها؟ أهى مستلقية؟ أم واقفة؟
أم ربما ترفع ذراعها؟
ايه يا وردتى
كم تكشف هذه الحركة فجأة
معصمك الأبيض المستدير!
ماذا تعمل الآن
الآن فى هذه اللحظة؟
لا شك أنها تداعب
قطًا يرقد فى حجرها
أو ربما هى تمشى.
ها هى قدمها تنتقل.
آه من قدميك، قدميك الحبيبتين
قدميك اللتين تمشيان على روحى
قدميك اللتين تضيئان أيامى السوداء.
بمن تفكر؟

بى؟ أم... ومن يدرى
بالفاصولياء التى لم تشأ أن تنضج.
أو ربما هى تتساءل
لماذا قدر لأناس عديدين هكذا
أن يكونوا بؤساء لهذا الحد
ماذا تعمل؟ ماذا تعمل الآن
فى هذه اللحظة؟

- ٢٢ -

ما أسعد أن أفكر بك
عبر ضوضاء الموت والظفر
أن أفكر بك وأنا فى السجن
وبعدما تجاوزت سن الأربعين
ما أسعد أن أفكر بك.
ها هى يد صديقة منسية على
نسيج أزرق.
وها هو فى شعرك
استرخاء ترى مدينتى استانبول وكبرياءها
وإن سعادتى بحبك
لتشبه قيام إنسان آخر فى داخلى.
ما أسعد أن أفكر بك
أن أكتب إليك
وأن أتأملك مستلقية على ظهرك
فى غرفة سجنى
وأن أفكر بالكلمة التى قلتها فى اليوم الفلانى
والموضع الفلانى،

ليس بالكلمة نفسها
وإنما بطريقتها فى احتواء عالم بكامله.
ما أسعد أن افكر بك
إننى أحفر لأجلك أشياء، مرة أخرى،
وسوف أصنع علبة صغيرة وخاتمًا
وسوف أحيك ثلاثة أمتار من الحرير.
وفجأة،
سوف أندفع واقفًا
لألقى بنفسى على قضبان
نافذتى
وسوف أصرخ فى سماء الحرية الزرقاء
كل ما كتبته لأجلك.
ما أسعد أن أفكر بك
عبر ضوضاء الموت والظفر
أن أفكر بك عندما أكون فى السجن
وبعدما تجاوزت سن الأربعين

أغرب المخلوقات

وكالرتيلاء، يا أخى،
أنت كالرتيلاء،
فى ليل الهلع.
وكالعصفور الدورى،
أنت كالعصفور الدورى،
فى همومه الصغيرة.
وكالصدفة، يا أخى،
أنت كالصدفة
المحبوسة فى هدوئها.
إنك رهيب، يا أخى،
كفوهة بركان منطفئ.
وأنت لست واحدًا،
ولست خمسة،
إنك الملايين.

أنت كالنعجة، يا أخى.
وعندما يرفع الجلاد المتلفع بجلدك،
عندما يرفع الجلاد عصاه،
أنت
أنت تسرع لتدخل فى القطيع
وتمضى إلى المسلخ، راكضًا، وفى شبه زهو.
إنك أغرب المخلوقات،
أغرب من السمك
الذى يعيش فى البحر دون أن يدرى ما البحر.
وإذا كان هناك كل هذا البؤس على الأرض،
فبسببك، يا أخى،
وإن كنا جياعًا ومنهوكين
وإن كنا مسلوخين حتى الدم
ومعصورين كالعنقود لنعطى خمرنا
فهل أذهب إلى حد القول أن ذلك من ذنبك
لا، يا أخى،
ولكن لك يدًا كبرى فى ذلك.

١٩٤٨

الرحلة

رحلتنا، قمنا بها على مركب فحم.
فهل بقيت ميناء لم نقاتل فيها
وهل بقيت كآبة لم نغنها؟
والأفق الذى كنا نراه أمامنا، كل صباح،
ألم تره كل مساء وراءنا؟
وكم نجم مرق من أمامنا
ماسحًا وجه المياه!
أى فجر لم يكن انعكاس
حنيننا الكبير؟
إننا سنرحل إلى هناك أليس كذلك؟
إننا سنرحل،
رغم كل شىء.

هذه البلاد بلادنا

هذه البلاد بلادنا
هذه البلاد التى تشبه رأس فرس
آتية، تعدو، من آسيا البعيدة
لتسبح فى البحر المتوسط
هذه البلاد بلادنا.
معاصم دامية وأسنان مصطكة
وأقدام حافية
وأرض تشبه سجادة من حرير.
هذا الجحيم، هذا النعيم بلادنا.
لتغلق الأبواب التى تقوم على بيوت
الآخرين،
لتغلق إلى الأبد،
وليكف الناس عن أن يكونوا
عبيد الناس،

هذا النداء نداؤنا.
أن نعيش كشجرة، وحيدة، حرة
وأن نعيش إخوانًا كأشجار الغابة
هذا الحلم حلمنا

١٩٤٨

ذبحة صدرية

إذا كان نصف قلبى هنا، أيها الطبيب،
فإن نصفه الآخر، فى الصين،
مع الجيش الذى ينحدر نحو النهر الأصفر.
وفى كل صباح، أيها الطبيب،
كل صباح، عند الفجر،
يعدم قلبى رميًا بالرصاص فى اليونان.
وعندما يتهالك المسجونون
فى رقادهم
وعندما تبتعد الخطوات الأخيرة
عن غرفة التمريض،
يمضى قلبى، أيها الطبيب
إنه يمضى إلى بيت عتيق من الخشب فى استانبول.
ثم، أيها الطبيب، ها هى عشر سنوات
تمضى وأنا لا أملك ما أقدمه لشعبى المسكين

غير تفاحة،
تفاحة حمراء، هى قلبى.
لكل هذه الأسباب، أيها الطبيب،
وليس بسبب تصلب الشرايين ولا النيكوتين،
ولا السجن،
تتنابنى الذبحة الصدرية
إننى أتأمل الليل عبر القضبان الحديدية
ورغم كل هذه الجدران التى تقوم على صدرى
فإن قلبى يخفق مع أبعد نجم فى السماء.

١٩٤٨

هكذا

أنا فى الوهج الذى يتقدم
وملء يدى رغبات لأتحد.
العالم حلو.
وعينى لا تمل من التملى بالأشجار،
الأشجار المليئة بالرجاء،
الأشجار الخضراء
دون حد.
وخلال أشجار التوت ينسل درب مشمس،
وأنا على نافذة غرفة التمريض،
أنا لا أحس بروائح العقاقير.
والقرنفل يتفتح حتمًا فى مكان ما.
ليست القضية قضية كونك سجينًا،
بل قضية عدم استسلامك.
هكذا.

١٩٤٨

القرن العشرين

- «أن ترقد الآن
لنستيقظ بعد مائة سنة، يا حبيبى...»
- «لا
إننى لست هاربًا.
وبعد، فإن العصر الذى أعيش فيه لا يخيفنى،
عصرى اليائس، المشبع بالفضيحة،
عصرى الشجاع، والكبير،
الملىء بالبطولات.
أنا لم أندم يومًا على كونى أتيت
إلى هذا العالم باكرًا.
أنا من القرن العشرين، وأنا فخور بذلك.
حسبى أن أكون حيث أنا، بين رجالنا
وأن أقاتل فى سبيل عالم جديد...»
- «بعد مائة عام، يا حبيبى...»
- «لا، أبكر ورغم كل شىء

عصرى المحتضر والوليد،
عصرى الذى ستكون آخر أيامه سعيدة،
والذى ستمزق فيه صرخات الفجر
ليلتى الرهيبة،
إن عصرى ستتفجر شموسه كعينيك
يا حبيبتى

١٩٤٨

فى الحياة

ليست الحياة ضربًا من المزاح
إنك ستعيرها من الجد
ما يعير السنجاب مثلاً
دون أن تنتظر شيئًا من الخارج أو من
العالم الآخر
فما عليك ما تعمله إلا أن تعيش.
ليست الحياة ضربًا من المزاح،
إنك ستعتبرها جدية
ولكن جدية لدرجة
أنك ستقف مغلول اليدين
وظهرك إلى الجدار مثلاً
مرتديًا رداء أبيض
ونظارتين كبيرتين،
فى مختبر ما،
فتموت لكى يعيش الآخرون،

الأناس الذين لم تر لهم وجهًا،
وستموت وأنت تعلم
أن لا أحلى ولا أكثر حقيقة من الحياة.
إنك ستعتبرها جدية،
جدية إلى درجة
أنك، مثلاً، سوف تغرس الزيتون
فى السبعين من عمرك،
لا ليبقى لأولادك وأحفادك من بعدك،
ولكن لأنك لا تؤمن بالموت، ولو رهبته،
ولأنك تؤمن بأن الحياة تشيل أكثر فى الميزان،

١٩٤٨

العدو

- ١ -

إنه عدو رجب، الحائك فى بروصة
وعدو حسن، الآجستور فى معمل بقارابوق،
وعدو الحاجة العجوز، الفلاحة الفقيرة
وعدو سليمان، العامل الزراعى،
وعدو الإنسان الذى أنا هو، والذى أنت هو،
عدو الإنسان الذى يفكر.
ولكن بما أن الوطن هو بيت كل هؤلاء الناس
فهو إذن عدو الوطنى، يا حبيبتى،

- ٢ -

إن أيدينا أغصان محملة بالثمار
فيأتى العدو ليهزها، العدو يهزنا
ليلاً ونهارًا.
وليسلينا بصورة أسهل وأهدأ،
هو لم يعد يضع الأغلال فى أرجلنا

وإنما فى صميم جذور رأسنا
يا حبيبتى.

١٩٤٨

انطباع

الريح
والنجم
والماء...
وغفو حلم
أفريقى هوى
على اليم
ومنارة تضىء
وليل
مدلهم
كالشراع
ونحن نمضى
ونجىء
ونجىء
فى عالم النجوم هذا
حيث يضيع

كل شيء
دون أن ينكشف شيء.
النجم
فى الماء
الريح
واليم
الصاخب
ويسمع
فى البعيد
بعض غناء
مثل الماء
والنجوم
والهواء.

بييرلوتى

الغاز
خنوع
وقدر
أقفاص، وقصور وقوافل
وشلالات
فامضين، يا أميرات،
وامضين يا حوريات
يا من يرقصن على صينيات،
من فضة.
مهراجاه، باديشاه،
وشاه
من ألف وسنة.
فكأنما تتدلى من المآذن
حوافر من مرجان،

ونساء مخضوبة بالحناء
تدفع بأرجلها أنوال التطريز.
وفى البعيد،
خلال الرياح،
يقرأ أئمة ذوو لحى خضراء
فى المصاحف.
هذا هو، هذا هو الشرق،
الشرق كما رآه الشاعر الفرنسى،
الشرق الصافى والخام،
كما يبدو فى الكتب التى تطبع منها
ملايين النسخ فى الدقيقة.
إنما لا البارحة
ولا اليوم
ولا غدًا
لم يوجد
ولا يوجد
ولن يوجد
هكذا شرق!
الشرق،
مشرق الشمس،
ترى أم حمم،
حيث العبيد
العبيد العراة
تقضى جوعًا.
بلاد البؤس،

وملك الجميع، ما عدا الشرقى.
ايه آسيا! يا أهراء أوروبا،
يا أهراء مكتظة بكل شىء،
يا أهراء مكتظة بالقمح.
ايه يا آسيا
إن صينييك،
صينييك الذين يسألون الصدقات،
يتعلقون بشعورهم،
ويتشبثون بأيديهم، كالشموع الصفراء،
على صاريات البوارج الأمريكية!
وعلى أعلى قمة
من جبال هملايا،
وأكثرها وعورة،
يعزف الضباط البريطانيون موسيقى الجاز
إنهم إنهم يغمسون
أرجلهم الكبيرة،ذوات الأظافر السوداء،
فى نهر الجانج، حيث يلقى المنبوذون
بأمواتهم المساكين
الذين سحقهم اليأس.
والأناضول
من أعاليه إلى مهاويه
لم يعد إلا الأرض
التى يرسل فيها آرمسترونغ
أغانيه الزرقاء
لقد سئمت آسيا،

سئمت كل هذا،
والشرق لم يعد يريد أن يبلع
هذا الحساء.
وحتى لو استطاع أحدكم، غدًا،
أن يعيد الحياة لبقرتنا التى ماتت جوعًا،
فليبعد،
إذا قدر له أن يكون
بورجوازيًا.
وحتى أنت، يا بييرى لوتى،
وخاصة أنت،
أنت الذى اختبأ فيه
قمل التيفوس
الذى لقحونا به
عن طريق النسيج المشمع،
أنت أبعد عنا
أبعد من الضابط الفرنسى!
فأنت، أيها الضابط الفرنسى،
قد نسيت حبيبتك «ازياده»
ذات العيون العنقودية
بسرعة أكثر مما تنسى فيها العواهر.
لقد كذبت يا لوتى،
لقد كذبت،
فقد قصفت بالقنابل
قبر ازياده
الذى غرسته فينا،

الذى غرسته فىَّ،
كما لو كان مرمى من خشب.
فليعلم الجميع
أنك يا لوتى لست إلا دجالاً!
دجال...
بيير لوتى
الذى يبيع الشرق
كل الأنسجة الفرنسية، كل الأنسجة المهترئة،
مضيفًا إلى أسعارها خمسمائة بالمائة كأرباح.
يا بيير لوتى،
لو آمنت
بروح منفصلة عن الذكرى،
لأخذت روحك
فى اليوم الذى سيتحرر فيه الشرق،
ولصلبتها على قاعدة جسر،
ولدخنت سيجارة،
قبالة تلك الروح الكاذبة.
لقد مددت إليكم يدى،
لقد مددنا إليكم أيدينا،
فصافحونا
يا عراة أوروبا.
ولنركض جنبًا إلى جنب
على الخيول الحمراء التى نمتطى.
فالهدف قبالتنا، هناك قريبًا جدًا،
قريبًا جدًا، فانظروا،

انظروا، فقد أصبحت معدودة
الأيام التى لا تزال تفصلنا عن الحرية
وانظروا بعث الشرق
يقبل من بعيد،
ملوحًا بمنديله المضرج بالدم.
وانظروا أخيرًا خيولنا المطهمة،
الراقصة بسنابكها
على أشلاء
الاستعمار.

منذ أصبحت فى الداخل

لقد دار الكون عشر مرات،
حول الشمس،
منذ أن وقعت
فى غيابة هذا السجن،
سله عن رأيه فى ذلك،
فإن جوابه سيكون.
«لا أهمية لذلك
فعشر سنوات ليست شيئًا فى حساب الزمن»
وإن سألتنى رأيى أجبت:
«عشر سنين من عمرى».
لقد كان لى قلم صلد
عندما وقعت فى هذه الغياهب
ولكثرة ما كتبت، وكتبت،
ابترى فى أسبوع.

سله يجبك:
«عمر بكامله»
سلنى أجبك
«لا تبال، فما مضى غير أسبوع».
عثمان، عثمان الكبير
الذى حكم عليه فى جريمة قتل
أمضى، منذ أصبحت هنا،
ثمانى سنوات ونصف من سجنه،
وخرج.
فدار فى الخارج بعض الوقت،
واتصل من جديد بعصابته،
ثم ها هو يعود
كما كان منتظرًا،
فى قضية تهريب،
وقد حكم ستة أشهر حبس
فقضاها
وتزوج
وهو ينتظر
طفلاً فى الربيع
إنهم الآن فى العاشرة من عمرهم،
جميع الأولاد
الذين وقعوا من بطون أمهاتهم
فى السنة التى وقعت فى هذا الجحيم.
والمهارى التى ولدت فى تلك الحقبة
نحيلة، مرتعشة، على قوائم رخصة،

أصبحت منذ زمن بعيد
جيادًا مطهمة.
وغرسة الزيتون وحدها
بقيت غرسة الزيتون.
لقد بقيت طفلة.
منذ أن وقعت فى هذه الغياهب
زينت ساحات عامة جديدة
مدينتى البعيدة!
وكل ساكنى العمارة التى كنت أقطن،
رحلوا الآن
إلى شارع أجهله،
إلى بيت لم أعرفه بعد.
وقد كان الخبز ناصع البياض،
وطريًا كالقطن،
فى السنة التى وقعت هنا
ثم التزم الناس الحصول على بطاقات
لشرائه.
هنا،
فى كل الزوايا
اقتتل الناس فى سبيل قطعة خبز،
بكبر الكف،
والآن، يبيعونه
بحرية من جديد،
ولكنه أسود لا طعم له
حتى لتشمئز منه.

فى السنة التى دخلت، هنا،
لم تكن الثانية
قد أحرقت العالم بعد
وفى داشو لم تكن
الأفران البشرية قد اشتعلت
وأميركا لم تكن
قذفت بعد
قنبلتها
قنبلتها الذرية
على هيروشيما.
لقد سال الزمن
سال كدم
طفل يذبح
فطووا رسميًا هذا الفصل.
وها هو الآن
الدولار الأميركى
يهيئ ثالثة إلى غد.
ومن حواشى الظلمات
أسندوا أيديهم
أيديهم الثقيلة
على بلاط الطريق
لينهضوا.
عشر مرات دار العالم
حول الشمس
منذ أن وقعت

فى هذا السجن،
وأنا أكرر بنفس الهوس
ونفس الحماس ونفس الطموح
ما كتبته لهم سنة
دخولى هنا.
لهم هم الذين
كانوا بعدد
نمل الأرض
وسمك البحار
وطير السماء.
لهم هم الذين كانوا جبناء
وشجعانًا
وأطفالاً جهلة،
رائعين ومظفرين،
لهم هم الذين كانوا يبدعون كل شىء
حتى الشتائم،
لهم هم الذين كانت أسماؤهم
تضىء فى كل الأغانى،
لهم هم الذين كان
كل ما خلا ذلك،
مثلاً، سنوات سجنى العشر،
لا تبعث فيهم بردًا ولا حرًا

الكتاب ذو الغلاف الجلدى

فى الليلة الماضية
على ضوء
القمر
قرأت، ساعات طوالاً،
كدرويش أحمق
انطفأت شمعته،
قرأت الكتاب ذا الصور الملونة،
الكتاب الكبير الذى كان غلافه
الجلدى المذهب، ممزقًا.
ومن كل صفحة صفراء
فى الكتاب الراقد،
فى حضن
الغلاف الجلدى المذهب،
كانت تنبعث

رائحة العفونة،
وأخذت السطور المخطوطة تتحرك واحدًا
واحدًا،
وجاءت تقف أمام طاولتى
وقوف أشخاص الحكايات:
وتنكر الشيطان
فى زى الحية
ووقع
آدم
فى حبائل سحر حواء،
ورأيت هابيل يقتل قابيل كالمجنون.
وانطلق فلك من خشب
يمخر عباب محيط الأحلام
ورأيت على الأفق
نوحًا ينتظر حمامة.
عند ذاك خيل إلىّ أننى
أدوس
أدوس أرض القبور.
وعلى طور سيناء رأيت موسى
يرفع ذراعيه لله الذى أصغى إليه،
ويشق البحر بضربة من عصاه،
وأبناء إسرائيل
يشقون دربهم إلى أرض الميعاد
وقد تحولت صلاة زكريا
إلى تنهيدة أبدية،

وولد عيسى
ووهبت مريم
طهرها البكر لله...
وآوت المدينة
محمدًا القرشى،
وأضحت كربلاء للحسين.
جدثًا من نار،
أجل كل ذاك كان يقوم
شيئًا فشيئًا وينهار خلال الأعصر،
كلما قلبت
صفحات
الكتاب الذى كانت تنبعث منه
روائح العفونة.
وغاب القمر وأشرقت الشمس
وولدت شعلة جديدة
فى قلبى.
ثم،
بحركة عميقة ومهيبة
ألقيت فى غيابة بئر
ليرقد فيه رقاده الأبدى
بالكتاب ذى الصفحات الصفراء
الذى كان غلافه المذهب
ممزقًا!...
ويل لنا، ويل لنا، نحن الذين خدعنا
طيلة أجيال،

نحن الذين زحفنا
كالثعابين،
نحن الذين احترقنا
كالمشاعل،
لنلمح فى الظلمة
الأثلام التى خطت فيها،
لنراها
فى الليل الحالك
ولنسجد خاشعين أمامها.
بهتان كل ذلك،
فالسماء لم تنزل
الرحمة ولا السلام
للعبيد الذين يجهدون
والذين لم يعد لهم طاقة على الاحتمال...
إننا لا نزال العبيد،
ولا يزال لنا أسياد،
ولا يزال حولنا جدار،
جدار شطرت أحجاره الملعونة
التى يعلوها الطحلب
مصائر أبناء الأرض
إلى فئتين:
قسمت بعضهم الأسياد
وسمت البعض الآخر العبيد!

عن أيديكم وعن الكذب

أيديكم الواجمة كالأحجار،
الحزينة كالأغانى التى تردد فى السجن،
الثقيلة، البطيئة كحيوانات الجر،
أيديكم التى تشبه الوجوه الغاضبة
التى يحملها الصبية الجياع!
أيديكم الخفيفة، البارعة كالنحل،
المثقلة كضرع الحليب،
القوية كالطبيعة،
أيديكم التى تخفى تحت جلدها القاسى
العطف والمحبة.
إن كرتنا لا تقف بين قرنى ثور.؟
إنها تقف بين أيديكم...
آه يا رجال، يا رجالنا،
إنهم يغذونكم بالأكاذيب

بينما أنتم أحوج الناس، وأنتم جياع،
إلى الخبز واللحم.
إنكم تتركون هذا العالم المثقلة أغصانه بالثمار
دون أن تأكلوا مرة واحدة على مائدة نظيفة
آه يا قوم، يا قومنا،
يا أبناء آسيا وأفريقيا، خاصة،
يا أبناء الشرق الأوسط والأدنى،
يا أبناء جزر الباسيفيك،
يا أبناء بلادى،
أعنى يا أكثر من سبعين بالمائة من الناس
إنكم غافلون، إنكم عجز...
إنكم فضوليون،إنكم فتيان كأيديكم...
يا قوم، آه يا قومنا،
يا أخى الأوروبى أو الأميريكى،
إنك رشيق، وإنك جرىء
وإنك سادر كيديك
إنهم يكذبون عليك، ويسيرونك...
يا قوم، آه يا قوم،
لو كذبت الصوارى،
ولو كذبت الآلات،
ولو كذبت الكتب،
ولو كذبت الإعلانات والبلاغات على الأعمدة،
ولو كذبت على الشاشة
سيقان الصبايا العارية،
ولو كذبت الخطيئة،

ولو كذبت الأغانى الهدهدة،
ولو كذب الحلم،
ولو كذب عازف الكمان فى الحانة،
ولو كذب ضوء القمر،
فى الليالى البائسة،
ولو كذبت الكلمات،
ولو كذب اللون،
ولو كذب الصوت،
ولو كذب الذى يستغل أيديكم
ولو كذبت كل الناس، وكل الأشياء،
ما خلا أيديكم،
فلكى تكون أيديكم طيعة كالصلصال
وعمياء كالظلمات
وبلهاء ككلب الراعى.
وحتى لا تثور أيديكم،
كان حلم التاجر،
فى هذا العالم الفانى،
فى هذا العالم الذى كان
بالإمكان أن تسعد فيه الحياة.

إنهم لا يدعوننا نغنى

إنهم لا يدعوننا نغنى، يا روبسون،
يا كنارى، الذى له أجنحة النسر،
يا أخى الأسود ذا الأسنان اللؤلؤية.
إنهم لا يدعوننا نجلجل أغانينا،
إنهم فى خوف، يا روبسون.
إنهم يخافون الفجر، يخافون أن يبصروا،
يخافون أن يسمعوا، يخافون أن يلمسوا.
إنهم يخافون أن يحبوا.
يخافون أن يحبوا كما أحب «فرحات» بوله
(ولابد أن عندكم شبيه فرحات
يا إخوانى السود؟ ما اسمه يا روبسون؟)
إنهم يخافون الحبة والأرض،
يخافون من الماء الذى يجرى،
يخافون أن يتذكروا،

فإنه لم تشد يومًا على أيديهم
يد صديق لا يبتغى عمولة، ولا حسمًا، ولا مهلة
بحرارة العصفور الدافىء.
إنهم يخافون الرجاء، يا روبسون،
يخافون الأمل،
إنهم يخافون، يا كتارى الذى له أجنحة النسر
إنهم يخافون من أغانينا، يا روبسون...

تشرين أول ١٩٤٩

أقدام حافية

الشمس فوق رؤوسنا
عمامة
من نار،
والأرض الصلدة
تنعل أقدامنا الحافية
وقروى أكثر موتًا
من بغلته العجوز
يسير معنا،
معنا؟ كلا، بل هو
فى دمنا
الذى يشتعل.
دون جراب على الكتف
ودون سوط فى الكف
ودون جياد وعربات

ودركيين،
اخترقنا قرى، هى أوجار دببة
وضياعًا من لبن
وجبالاً علاها الشيب.
هكذا طوفنا ببلادنا
وفى العيون المترقرقة
بوجوه الثيران المريضة
أصغينا إلى صوت الحقول الصخرية
ورأينا أن الأرض تمنع
المحاريث البدائية
عن لهاثها ذى السنابل الذهبية.
إننا لم نطوف فى حلم،
لا،
فإننا تنقلنا من مزبلة إلى أخرى
نحن
نعلم
بأى حنين
تميد بلادنا.
فهذا الحنين
قد صيغ بسطور وخطوط
كما يعبر فكر مادى.
هذا الحنين يضم
المادة
المادة
البيوت الواطئة

المكفهرة الوجوه
تتساند رؤوسها
حول أزقة كمسارب المناجذ
وحملة العمائم المزركشة
ذوو عيون الجن
وأحاديث اليمام
يقعدون القرفصاء فى الحوانيت
وأمامهم، لابسو الأخفاف
بأقدامهم المشققة
ودركى ثقيل
يقود إنسانين
ارتكبا الزنا فى الحقل
وشيخ ذو لحية بيضاء
يذكر اسم الله
بنبرات شديدة،
ويبصق
فى وجه الزانيين الفتيين،
فيما هو يسار مساعد
صاحب القهوة.
وهكذا
فإن كآبة هذه القرية،
هذه القدر التى تشيع نثر
الرقاد العفن،
لا تحمل أى طابع مشوق
فإن فى روحها حنينًا

يعبر عنه بكلمتين خفيفتين:
البخار والكهرباء.
وإذا لم تكونوا عميانًا
فإنكم سترون
أن هذا الفلاح ذا الوجه الترابى
يريد أن يتشبث بآخر قيراط من أرضه
مع ولده الذى ينهض صدره بشكل مرمى
ومع ابنته
وامرأته
اللتين تحملان فى وجهيهما
آثار أظافر الجابى
ومع عربته التى يجرها ثوران،
ويريد، لو قيد له أن يموت،
أن يموت معهم
وأن يدفن
هنا
معهم.
وأن ما تشتاق إليه الحقول والجبال،
وتشتاق إليه بشهوة المرأة
الشبقة
هو قوة ألف جاموس فى كل
من براثنها،
الآلات التى روحها البخار،
والتى تحرك الأرض كما يحرك الماء
أما السدة

الذين يحملون الأقلام
بأيديهم
واللجم
فى أشداقهم
والذين تقرقر بطونهم الزجاجية
كالنارجيلات
الصفراء،
والذين يمرون بعربات تشدها ثلاثة جياد
ويلقون من جوفها بتنهيدة على طراز «بيير لوتى»
بوجه القرويين
العميان
والصم
والعديمى الشم
فلقد سئمنا من سماع ترهاتهم.
فإنه يتوجب
أن ترسخ فى رؤوسنا كلنا
أن ترسخ أخيرًا هذه الحقيقة:
أن بالفلاح شوقًا إلى الأرض
وما الشوق للأرض
إلا الآلة.

نبذة

عن حياة ناظم حكمت

نقلاً عن الكلمة التى قدم بها الكاتب التركى، حسن غرة، ناظم حكمت فى ذيل المجموعة «ناظم حكمت»، التى صدرت سنة ١٩٥١، باللغة الفرنسية عن دار «الناشرين الفرنسيين المتحدين». وقد كانت هذه المجموعة من أشعار ناظم التى ترجمها إلى الفرنسية حسن غرة وكثيرون غيره من أدباء الترك أهم المصادر التى اعتمدناها لجمع هذه المختارات من شعر حكمت الموزع بين عدة دواوين ومسرحيات ومقالات لا تحصى فى الصحف التركية والأجنبية.

«ولد ناظم حكمت سنة ١٩٠٢ من عائلة عريقة فى استانبول. وقد تفرغ باكرًا للشعر ولمثله الأعلى اللذين ليسا إلا شيئًا واحدًا فى نظره. وفى الثامنة عشرة من عمره، كرس قلمه لمهاجمة غزاة تركيا فلاحقه البريطانيون واضطهدوه. ثم ذهب إلى موسكو، موفدًا من قبل أتاتورك، لدراسة علم الاجتماع. وعند عودته، بدأ حياة مضطربة بين الحرية والسجن الذى خرج منه مؤخرًا بعد ثلاثة عشر عامًا من الحبس المتصل. وقد بلغ مجموع الأحكام بالسجن التى صدرت بحقه ستة وخمسين عامًا، لم يكمل منها إلا ستة عشر عامًا فى الحبس الفعلى.

وبين سنة ١٩٢٨ و١٩٣٨ أصدر ما يقارب العشرة دواوين وثلاث مسرحيات وكثيرًا من الأشعار الساخرة. وقد كان يكتب فى الصحف تحت اسم مستعار: «اورخان سليم». وقد كان يكسب عيشه بالعمل فى المطابع والاستديوهات والصحف.

وطيلة هذه السنوات، لم يقم بأى عمل غير مشروع رغم بقائه وفيًا لنفسه وآرائه. وقد أحبه كل الناس وأتاتورك نفسه الذى كان يستقرئ أشعاره. وآخر ما كان يقوم به من أعمال قبل محاكمته، ترجمة الأفلام فى أحد استديوهات استانبول. ويقال إنه لم يكن دائمًا صادقًا فى الترجمة خاصة عندما كان الأمر يتعلق بالأفلام الفاشستية. فعند عرض الفيلم الإيطالى «سيبيون الأفريقى» الذى استغلت الدعاية الفاشستية فيه التاريخ الرومانى على هواها، كانت مفاجأة كبيرة عندما سمع قاهر هانيبال يخطب فى جنوده عن نعم المدنية الرومانية على الأرض الأفريقية، بالعبارات الآتية التى دسها ناظم حكمت: «أيها الجنود، إنكم هنا لتمتصوا دماء المغلوبين والضعفاء. فامضوا للسلب والتبذير والسرقة وانتهاك الأعراض إلخ...»

وفى سنة ١٩٣٨، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها عليه بتهمة نشر المبادئ «الهدامة» فى صفوف الجيش. فقضت عليه بالسجن مدة ثمانى وعشرين سنة. ولم يعلم شىء بعد عن تفاصيل محاكمته التى جرت بصورة سرية. إنما علم أنه لم يتنكر لأفكاره ولكنه أنكر قيامه بأى عمل غير مشروع.

وفى سجنه، فى بروصة، تابع ناظم حكمت صياغة نتاجه الشعرى البالغ القوة والنابض بعذوبة متجددة أبدًا. فظلت أصداؤه تتردد شيئًا فشيئًا فى الشعر التركى الحديث. وقد تخطت هيبته ونفوذه منذ زمن بعيد نطاق الأوساط الأدبية لينفذا إلى الشارع وأحيانًا كثيرة إلى الدروب البعيدة، وذلك بفضل قوته كمحرك أفكار وصور، وخالق أشكال وصيغ وبفضل إخلاصه فى العمل دون انقطاع. صحيح أن الفلاح التركى لا يزال من الجهل بحيث لا يستطيع أن يعرف الشاعر

الذى وضع حياته فى خدمته والذى لم يكف عن أن يصور بؤسه وعطشه إلى العدالة.

فالناس الذين كتب سيراتهم، أكان اسمهم «محمد» أو «يونس» أو «يوسف» والذين يعيشون فى سجن أشد سوادًا من سجنه لا يستطيعون أن ينعموا بترف حيازة شاعر لهم. فإنه يتحتم أولاً أن تقتنع الجمهورية التى ولدت من دمهم وعرقهم، بوجوب تعليمهم القراءة.

وناظم حكمت، الجميل مثل آله، والوفى لمثله الأعلى، والسخى المنفتح كينابيع الأناضول، امتلك كل القلوب التى التقى بها. وهو على سعة فهم وصراحة مع حراسه ومع رفاقه المساجين مثلما كان مع خصومه ورفاقه. وهو من الوعى العميق لكل ما يجرى فى بلاده وفى العالم، بحيث يتعذر عليه أن يشكو أو يكره أو يساوم. وكل ما كتب فى أيام سجنه يسمو بكثير على آثاره السابقة.

وقد اكتسب نفسه الوجدانى، فى سجنه، نغمة أكثر هدوءً وثقة، بدل أن تداخله المرارة.

وقد كان ينظم أشعاره التى كانت تجتاح البلاد كالأمواج فيما كان يلهو بالعمل مع المساجين وبتعليمهم الرسم والغناء والتفكير. ويتحدثون عن ملاحم شعرية عديدة نظمها فى السجن لا يعلم منها إلا مقاطع. وأن الرباعيات والرسائل التى يضمها هذا الكتاب لم تكن إلا وسائل للتسلية أثناء عمله. وقد يدهش كثيرًا إذا رآها مترجمة كما يدهش لصور له أخذت دون علمه. ولكن شاعريته تصل إلى ذروتها فى هذه المقاطع. فقد كتبها بلغة على غاية الحلاوة والأسر. وباستثناء الشعر العامى، لم يبلغ الشعر التركى يومًا مثل هذه البساطة الأخاذة حيث يتصافح المثل الأعلى والحبيبة الحقيقية فى براءة وألفة، وحيث تذوب العقيدة فى التشابيه والرموز كما كانت تذوب أفكار الصوفيين الكبار فى الأناشيد الغزلية، وحيث تبدو الثورة التى تعصف بالروح أكثر عمقًا وبمقدار ما يبدو عليها الكبح».

التصحيح اللغوى: طارق الشامى

الإشراف الفنى: محسن مصطفى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب